الغشاوة

المشروع الوطني للترجمة
8
آداب عالمية

الغشـاوة

قصص

تأليـف : يفغيني غريشكوفتس
ترجمة: د. هزوان الوز

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

العنوان الأصلي للكتاب:

планка

Евгений Гришковец

الغشاوة: قصص / تأليف يفغيني غريشكوفتس؛ ترجمة هزوان الوز. – دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧ .– ١٩٢ص؛ ٢٥ سم
(سلسلة آداب عالمية ٨)

١– ٨٩١.٧٣ غ ر ي غ ٢– العنوان ٣– غريشكوفتس
٤– الوز ٥– السلسلة

مكتبة الأسد

يفغيني غريشكوفتس
الإنسان والمسرحيّ والقاصّ

انتقل يفغيني غريشكوفتس مع عائلته للعيش في لينينغراد (سان بطرسبورغ) عندما كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية في مرحلة من مراحل طفولته، وكان والده قد تخرج في معهد الهندسة المالية والاقتصادية منها، إلاّ أنّ أسرته انتقلت بعد فترة قصيرة إلى كيميروفو، وعن حياته في لينينغراد يقول:

«انقطعت عن كيميروفو، ولطالما رغبت بالذهاب إليها كثيراً، ولمّا عدت إليها أردت الرجوع من جديد إلى لينينغراد حيث كنت أرتاد فيها المدرسة رقم (٧٤)، وقبلها روضة الأطفال التي كانت رائحة السكاكر تصل إليها من معمل السكاكر القريب منها.

كانت العودة إلى كيميروفو مفاجأة، وكنت أقول دائماً إنني من لينينغراد، وهذا ما جعلني محط احترام الناس واعتقادهم بمعرفتي القوية في مختلف المجالات، كان اللباس المدرسي مصنوعاً من الجوخ الرمادي اللون، وفي ذاك العام غيَّروه إلى اللون الأزرق، وبما أنني

جلبت لباسي الأزرق المستخدم في لينينغراد المزين على الأكتاف برسومات كرسومات الأطفال فقد كنت ألبسه وأغدو مميزاً به لأنّ اللباس في كيميروفو بقي باللون الرمادي لسنة أخرى، وبذا كنت أبدو عصرياً جداً».

أنهى غريشكوفتس المرحلة الثانوية عام ١٩٨٤م، ثم انتسب إلى كلية علوم اللغة في جامعة كيميروفو الحكومية، واستدعي للخدمة العسكرية خلال الفصل الثاني، فَخَدَمَ في أسطول المحيط الهادئ في الميناء السوفييتي «زافيوتي إيليتش».

شارك غريشكوفتس في ذلك الوقت بمسرحيات النشاط الفني الذاتي، وفي عام ١٩٨٨ عاد إلى الدراسة بعد انتقاله للخدمة الاحتياطية، وعمل في استوديو المسرح، ومَثَّلَ في المسرح الجامعي.

وفي عام ١٩٩٠ حاول الهجرة إلى الغرب، ولكنه غيَّر قراره بسرعة، ونَظَّمَ في كيميروفو المسرح المستقل «لوجه»[1]، وقدّم عشر مسرحيات خلال سبع سنوات، من أهمها: «المدرعات»، و«+١»، و«وداعاً للورق»، و«الكوكب».

وبعد ثماني سنوات من محاولته الهجرة، انتقل إلى كالينينغراد. وآنذاك قَدَّمَ في موسكو أمام لجنة التحكيم مسرحيته «كيف أكلت الكلب» التي استحقت في عام ٢٠٠٠ جائزة المسرح الوطني «القناع الذهبي»، و«جائزة النقاد».

---

(١) النزل.

خلال فترة سكنه في كالينينغراد قام غريشكوفتس بجولات مع أعماله المسرحية، ليس في مدن روسيا فحسب، بل في أوروبا أيضاً، بالإضافة إلى مشاركته في الكثير من المهرجانات المهمّة: افينيون، أثينا، باريس، بروكسل، زيوريخ، ميونيخ، برلين.

وفي شباط عام ٢٠١١ أعلن عن إغلاق مجموعته في«المجلة الحية»، وبدأ النشر على صفحات التواصل الاجتماعي، على الرابط odnovremenno.com، ونقل إلى هناك أرشيفاً من منشورات«المجلة الحيَّة».

وفي صيف عام ٢٠١٢ شارك يفغيني غريشكوفتس في حملة تحت اسم«القطب الشمالي الروسي، هناك بعيداً في المنطقة ما بعد القطبية في سفينة البروفيسور مولتشانوف»، وكانت الحملة في الأصل تهدف إلى إحصاء الدببة البيضاء جميعها، ودَوَّنَ ملاحظاته في الدفتر الذي اصطحبه معه، وأصبح فيما بعد كتاباً:«الحياة مخطوطة تقريبيةً».

يمكنك سماع صدى تشيخوف وشوشكين وهو يتردد في القصص الجديدة ليفغيني غريشكوفتس، فلقد كتب، ولمّا يزل يكتب عن النوادر المضحكة والمأساوية التي تتكون منها حياتنا، عن الشجار المنزلي، وقلق النوم المزمن، وقطرميز الخيار المخلل المكسور... إنّ أي شيء، مهما كان تافهاً، يتحول بنظره وبتأثير باعه الطويل إلى ملحمة تقريباً.

يجعلك الكاتب غريشكوفتس تقف على مسافة معينة، وتفكر بعمق وبعمق. إن هذه القصص لهي أفضل علاج لرجل يسابقُ الزمن يومياً، وينسى أن ينظر إلى نفسه في المرآة. تنظر... تدقق... فترى أن حياتك ليست من دون معنى، وفيها ما يجعلك تحبها.

يصف الناقد «بيتر فايل» الكتابة لدى غريشكوفتس بالآتي:

«غريشكوفتس يكتب «كما في الحياة» – بتردد وتعثر وارتباك. تكتشف فيه كلماتك التي لا تحضرك أحياناً ولا تحضر أياً كان، والأفكار التي لم يفكر بها أحد من قبل، والشعور الذي لا يمكن وصفه. التوقعات لديه صائبة دقيقة، مؤلمة كالوخز، وممتعة كالقبلة. وتتعرف إلى المعتاد يومياً، المعروف جداً، وكأنك تحصل على شيء غير متوقع أو غير منتظر، ثم كأنك تحصل عليه بمصارحة كرسي الاعتراف.

عندما تقرؤه لا تفهمه على قدر مدلولاته ومضامينه المعرفية. ومع الأيام تفهم أنك إذا كنت تحب السياحة فإنك تدريجياً، ومع الزمن، ستثير الأماكن المعروفة اهتمامك بدرجة لا تقل عما يثيره ارتيادك أماكن جديدة للمرة الأولى، بل وفيما بعد سيكون اهتمامك بزيارة الأماكن المعروفة أكثر أهمية لديك من ارتياد الأماكن غير المعروفة، يصبح الاكتشاف أثمن من الحداثة، وإعادة عيش الماضي أعظم من الريادة. ويوضِّح ذلك: ترى نفسك متغيراً في الزخرفات القديمة، ووفقاً للمؤشرات السابقة تبني مخططك الروحي. وهكذا فإن مطابقة الإيحاءات الذاتية لغريشكوفتس مع إيحاءاتك تستدعي ذكرياتك، ما يستثير ذاكرتك وتستكمل معرفتك بذاتك. إن تجربته الشخصية في الكتابة – تقوم على طريقة استيعاب تجربتنا الشعورية العامة.

وهكذا فإن نثر غريشكوفتس هو دائماً محدد ومعبر. والأسلوب خاضع لطموح حجز قطعة من الحياة في مصداقيته اليومية».

في أحد اللقاءات تكلم غريشكوفتس بصراحة حول «العمل الكتابي المضني المخيف، عندما تكون سرعة الكتابة غير كافية، والنص يرشح من خلال القلم ببطء شديد، بينما تضج الأدمغة في الوقت نفسه... أي وبالمعنى الحرفي لا تكفي السرعة، وعليك حجز الكميات الكبيرة من الكلمات والأفكار كي لا تهرب ولا تمحى، ويجب ألا يتوقف أو يتعطل حاسوبك الداخلي، وهكذا دواليك».

لقد اخترت خمس قصص من مجموعته الصادرة في موسكو عام ٢٠١١م، والتي تحمل عنوان «الغشاوة»، وترجمتُها لأقدم صورة عن الأدب القصصي للكاتب الروسي يفغيني غريشكوفتس إلى القارئ العربي والمكتبة العربية.

الدكتور هزوان الوز

النَّدَبَةُ

بعد أعمال الإصلاح تغيّر فندق«بويما» تغيراً كاملاً، لا من حيث مظهره فحسب، بل من حيث جوهره. ومع أن شكله الخارجي قد تبدل، إلّا أن الأهم كان تبدله جوهرياً.

لم يكن كوستيا[1] يعرف كيف كانت المعيشة فيه قبل الإصلاح، وكيف أصبحت الآن، لأنه لم يسبق له قط أن نزل في هذا الفندق. وما الداعي إلى ذلك؟ فهو يعيش على مسافة لا يتطلب قطعها أكثر من خمس دقائق سيراً على القدمين. ثم ما الداعي إلى أن يقيم في فندق ضمن المدينة التي فيها بيته.

كان في المدينة فنادق أخرى كفندق«تسينترالنايه»، وفندق «إيفوشكه»، والفندق الرئيس الذي سمي باسم المدينة نفسها. كان فندق«تسينترالنايه» مبنىً نمطياً مؤلفاً من خمسة طوابق، ومشيّداً من الآجر الأحمر، وكان ينزل فيه الموظفون الموفدون بمهمات من مراكز المناطق، والسائقون الذين يسيرون على الطرق الطويلة، وسكان الجنوب الذين يتاجرون في الأسواق. أما فندق«إيفوشكه» فلا يقع

(١) كوستيا: تصغير اسم كونستنتين أو قسطنطين (المترجم).

وسطَ المدينة، ولا يعلم سوى الشيطان أين يقع. وكان يقيم في الفندق الرئيس مسؤولون حكوميون من المراتب الوسطى وما دونَها. بيد أن فندق«بويما» كان أجمل هذه الفنادق. وهو يقع على الكورنيش. وكان ثمة فندق آخر في محطة القطار، ونُزُل ما قرب المطار، وفنادق صغيرة سيئة السمعة، تحمل تسميات مختلفة مثل«سناء الشمال»، أو«مون بليزر». وقد ظهرت هذه نُزُل في أطراف المدينة وزيّنت تلك الأماكن. ولكن كل هذه المحال لم تكن ذات قيمة تُذكر. إذ إنَّ فندق«بويما» كان يجسّد جمال الفكرة المعمارية وروح العصر. وكان كوستيا يحب هذا المبنى ذا المدخل العالي الطويل بدرجه الحجري، وأعمدته البيضاء المزخرفة، والشرفة التي تعلوه والمُحاطة أيضاً بأعمدة بيضاء مزخرفة مُتوَّجةٍ بدرابزين.

وعلى هذا الدرج، وعند المدخل، كانت تُلتقط الصور للمشاركين في الأعراس التي تُقام في مطعم الفندق في أيام العطل، خلال فَصلَي الربيع والصيف وفي بداية الخريف. وكان كوستيا يشهد ذلك منذ أن كان صبياً يتنزّه على دراجته الهوائية، أو يتسكع راجلاً على الكورنيش. وبعد التقاط الصور كان ضجيج المحتفلين يعلو خلف نوافذ الفندق وأعمدته، ولم يكن يخرج إلى درج المدخل سوى الرجال المخمورين ليدخنوا ويستردوا أنفاسهم وقد فكّوا أزرار قمصانهم البيضاء عند صدورهم.

كان كوستيا يأتي إلى هذا الفندق مع والديه. وقد تناولوا فيه الطعام مرات عدة. ومع أنه كان يشعر هناك بالملل، إلّا أنه كان يستمتع بوجوده في الصالة الكبيرة النظيفة غير المزدحمة. وكان يرغب في الذهاب إلى هناك.

وبالقرب من فندق «بويه» كان يمكن أن تلتقي فنانين مشهورين جاؤوا إلى هنا لِيُحْيوا حفلاتٍ في مدينتهم. وتراهم وهم يصعدون درج الفندق على مهل، أو وهُمْ يتمشّون على الكورنيش المجاور، وتشعر في أثناء ذلك بشعور ما مُبْهم.

لقد تغير كل شيء بعد الإصلاحات. بقيت الأعمدة والدرجات، ولكنها أصبحت أكثر ملاسة ولمعاناً. وظهرت مصابيح كالتي نراها في الصور المحفورة القديمة. وزالت الأبواب الخشبية الثقيلة التي كانت تحمل لوحات بيضاء صغيرة كُتب عليها: «المطعم مفتوح من الساعة.....»، وحل محلَّها أبواب زجاجية تُفتح ذاتياً، ملوّنة بما يشبه طبقة رقيقة من دخان بنّي.

وبدلاً من البوّاب الكهل الذي كان يقف عند الباب أصبح يقف هناك حارسان قصيرا القامة يحملان جهازين لاسلكيين. وأُحدث أمام الفندق موقفٌ للسيارات ترى فيه سيارات جميلة ونظيفة.

ولكن الأهم هو أن فندق «بويه» أصبح فندقاً للناس؛ لمختلف الناس. وأصبحتَ ترى فيه أجانب وموسكوفيين، وهؤلاء بإمكانك تمييزهم على الفور. فأنت على الفور ترى أن الأجانب - أجانب، وأن الموسكوفيين - موسكوفيون. أما الفنانون فقد بقوا من النزلاء، ولكنهم الآن لم يعودوا يلفتون الأنظار بوضوح كالسابق.

وكان كوستيا قد سافر إلى موسكو مؤخراً وبقي هناك مدة طويلة نوعاً ما. قضى هناك ثلاثة أشهر في الدراسة، وكان يتردد أيضاً إلى إحدى المكتبات التقنية الكبرى، واقتنص فرصة ليقضي يومين في

بطرسبورغ لمجرد الفرجة على المدينة، وزار صديقاً بطرسبورغياً كان قد تعرف إليه منذ مدة قريبة في موسكو. وقد أعجبته المدينة.

لقد حاز كوستيا منذ ثلاث سنوات دبلوماً في الهندسة، ولكنه لم يَحْذُ حذو أبيه في الذهاب إلى مصنع إصلاح السيارات، مع أنهم كانوا هناك ينتظرونه بصفته المتابع لتقاليد العائلة، بل عمل فترةً قصيرة في قسم لصيانة السيارات، وجرّب مع صديق له أن يفتتحا قسماً خاصاً بهما، ولكنه جرّب فحسب، ثم عمل بعد ذلك بائعاً في معرض للسيارات، ثم قرر أن يكمل تعليمه في المعهد العالي الذي كان يدرس فيه ولكن في قسم الاقتصاد. وفجأة أرسلوه إلى موسكو بموجب منهاج ما، وكانت هذه أول مرة يأتي فيها إلى العاصمة وحده ولمدة طويلة.

في البداية لايدري لماذا لم تعجبه موسكو قطّ، ولكنه عندما عاد إلى مدينته أصبح المشي على الكورنيش، وكذلك في سائر أنحاء المدينة يشعره بما يشبه الغثيان، وقد أنفق نقوداً كثيرة جداً على المكالمات الهاتفية مع أصحابه الموسكوفيين الجدد.

لقد أصبح كوستيا يشعر الآن بأن أشياء كثيرة جداً تنقصه في مدينته، وبأن ما يوجد فيها يزعجه أيّما إزعاج. كان يزعجه جداً سلوك الناس، وملابسهم، ومشاغلهم، وما يتحدثون عنه. وبعد وقت قصير أدرك كوستيا أنه يرغب في العودة إلى موسكو من جديد، وأنه اشتاق إليها وغلبه الحنين...

ففي موسكو اعتاد كوستيا، على سبيل المثال، أن يجلس طويلاً مع أصحابه في الكافتيريا، في مكان غير بعيد عن المكتبة العامة. وهناك يمكن

أن يقضي نصف النهار في تبادل الأحاديث، والتعرف إلى أشخاص جدد، أو حتى في القراءة بطرف عينه. لقد أعجبه هذا الأسلوب في العيش إلى حد الإدمان، وأصبح يشعر وهو في مدينته أنه بحاجة ماسة إليه؛ إذ إنَّ كل شيء في المقاهي الكائنة في الشارع الرئيس، وهو أجمل شوارع مدينته، وفي المقهى الذي يقدم المثلجات على الكورنيش، كل شيء هنا لم يكن كما ينبغي، بدءاً بالأثاث وانتهاءً بالرّوّاد وأولادهم. وعلى العموم لم يكن للمرء أن يحلم هنا بتناول كوب من القهوة الجيدة.

ولكن كوستيا اكتشف فجأة شيئاً لم يكن يتوقعه وهو وجود بار في بهو فندق «بويه» الأرضي، يستقبل ليس نزلاء الفندق فقط، بل جميع الراغبين الذين يعلمون بوجوده.

وقد وقع هذا الاكتشاف فجأة وبالمصادفة، إذ إن أحد أصحابه الموسكوفيين أرسل له بضع مجلات تقنية طازجة مع أحد معارفه الذي جاء إلى مدينة كوستيا بالطائرة لقضاء بعض شؤونه الخاصة، وقد اتفق كوستيا مع هذا الشخص على اللقاء في بهو الطابق الأرضي في الفندق.

التقيا هناك بالذات، واحتسيا القهوة، وثرثرا بعض الوقت، وهبط على كوستيا ذاك الشعور الذي كان ينتابه في موسكو عندما كان يجلس ساعات بطولها في كافتيريا صغيرة هناك.

لقد ظهر هذا البار في البهو الأرضي بعد الإصلاحات بالطبع. وهو بار صغير يقع في أقصى زوايا البهو، وقد صُمِّم، حسب تقدير كوستيا، وفق الأسلوب الإنكليزي: خمس طاولات صغيرة، وكراسٍ، ومنصة لتقديم المشروبات، مصنوعة من خشب ذي لون قاتم،

وجدران طليت بلون أخضر داكن، وعُلِّقت عليها لوحات رُسمت فيها قطارات بخارية. كانت غلّاية القهوة الكبيرة ذات الجوانب النحاسية تصدر صوتاً عالياً؛ وقد جلس إلى الطاولات الصغيرة أشخاص منهمكون في مطالعة الصحف وأمامهم في المنافض سجائر مشتعلة يتصاعد منها الدخان، وفاحت في المكان رائحة لذيذة اختلط فيها بخار القهوة بدخان التبغ.

وقد أتى كوستيا فيما بعد إلى هنا وحده ليحتسي القهوة فحسب، وكان يشعر ببعض الاضطراب لأنه كان يخشى أن يسأله الحرّاس: إلى من هو قادم؟ أو في أية غرفة يقيم؟ كما كان يخشى أن يرفض عامل البار تلبية طلبه، أو أن يحدث أمر ما غير طبيعي. جاء نهاراً، وجرى كل شيء على أحسن ما يرام. كان يجلس في البار شخصان أجنبيان يتجاذبان أطراف الحديث، وقد بادرا إلى تبادل التحية مع كوستيا، فشعر آنذاك بالارتياح والرضا. وصار منذئذ يتردد على المكان كل يوم تقريباً.

كان أكثر ما يطيب له هو الذهاب إلى هناك في الصباح الباكر، بدلاً من الدراسة أو قضاء أية شؤون أخرى. صباحاً كان يجلس في البهو الأرضي أناس كثيرون، ولكنهم كانوا يتصرفون بتحفظ كعادة الناس في الصباح؛ لم يكونوا يتكلمون بصوت عالٍ، ولا يتناولون عادة مشروبات كحولية، بل تراهم يتصفحون الجرائد، ويحتسون القهوة، ويدخنون السجائر، ويتحدثون بصوت خافت. وكان القادمون من مدن أخرى يستعدون لقضاء شؤونهم العملية خلال النهار، ويتلذّذون بالمُتَع الفندقية الصباحية. وكان يطيب لكوستيا أن يشارك في هذا الطقس

الاجتماعي. كان يشعر في أثناء ذلك بالانفصال عن المدينة التي تزعجه وعن الابتذال الذي تحتويه. ويطيب له أن يشعر بأنه ليس من أبناء هذه المدينة، وأن يتصرف على هذا الأساس؛ وكان إعجابه بأنه يتصرف على هذا النحو يشعره بالتزامه بأسلوب السلوك وبنمط المعيشة السائدين في العاصمة، أو حتى في أوروبا.

كان يجلس طوال فترة الصباح في البار، مستعداً دائماً لمساعدة أي أجنبي لا يتكلم اللغة الروسية، أو لقول شيء ما لعامل البار، أو لتقديم نصيحة له. وكان يُجري محادثات ممتعة قصيرة بالإنكليزية، بعد أن يعتذر عن قلة معرفته بها، ويسأل عن بعض الأمور، مثلاً عن البلد الذي أتى منه الشخص الذي يحادثه، ويشعر بالسرور إذا امتدح مُحَدِّثُه معرفته الجيدة للغة الإنكليزية، أو أثنى عليه عموماً. أما إذا صادف أن حادث شخصاً موسكوفياً فكان لابد من أن يقول له إنه زار موسكو، ويُرفِق حديثَه بإيراد أوصافٍ لشوارع موسكوفية كثيرة، بعيدة كل البعد عن تلك الشوارع التي تتضمنها عادة كتب المطالعة المدرسية، ما يجعل محادثيه يبدون استحسانهم بدماثة.

كما أن البار كان يتميز بقهوته اللذيذة، وأوانيه الفاخرة، وعلى المنصة توجد دائماً صحف طازجة، والعاملون فيه يتصرفون بلباقة غير معهودة محلياً.

وسرعان ما أصبح كوستيا يُجري كل لقاءاته العملية النادرة، ولقاءاته غير العملية كذلك في بهو فندق «بويها» حصراً، إذ كان يشعر بأن في هذا نوعاً من التصرف الراقي، أو حتى من الأُبَّهة.

وقد قرر أن يقابل أخاه الأكبر باشا(١) هناك أيضاً. وكان على هذه المقابلة أن تتم سريعاً، إلّا أن باشا كان يماطل ويؤجل موعد اللقاء مرة إثر مرة.

كل ما في الأمر أن كوستيا قد قرر الذهاب إلى موسكو ليستفسر كيف يمكنه الانتقال إلى معهد عالٍ ما من معاهد العاصمة ليكمل تعليمه هناك. وجميع المعلومات المتوافرة عن إمكانيات ذلك كانت غير مرضية، لذا عزم كوستيا على السفر بالطائرة إلى العاصمة، وتقصّي جميع المعلومات بنفسه؛ ثم إنه كان على العموم يتحرق شوقاً إلى زيارة موسكو. الحاجة ماسّة! ولكن النقود غير متوافرة.

منذ مدة طويلة لم يعد كوستيا يأخذ من أبيه شيئاً سوى السيارة، وفي بعض الأحيان فقط، بل من الأدق القول: في أحيان نادرة جداً. أما بالنسبة إلى النقود فقطعاً لا. كان يكفي أنه مضطر للعيش مع والديه اللذين كانا غير موافقين البتة على خياره الحياتي، وعلى طريقة عَيشه، وأزياء ملابسه وما إلى ذلك. كان يحرص على أن يأتي إلى البيت في ساعة متأخرة قدر المستطاع، وأن يغادره في أبكر وقت ممكن، كي لا يسمع من أبيه عباراته المعتادة: «ايه؟! لِمَ سحنتك مقلوبة هكذا؟ آ؟!» أو «وإلى متى ستظل هكذا؟». أبوه منذ «مئة» سنة يعمل بصفة كبير مهندسين في مصنع لإصلاح السيارات، ودائماً هو تَعِبٌ وأعصابه متوترة.

أما أخوه الأكبر باشا فكان شخصاً عملياً للغاية، وهو يكبره بسبعة أعوام، وقد أتمّ عامه الحادي والثلاثين منذ فترة جد قصيرة.

---

(١) باشا: تصغير اسم بافل أو بولص (المترجم).

وكان قد انفصل في عَيشه عن العائلة منذ وقت طويل، وهو يكسب جيداً من عمله في توريد قطع معدنية لمصنع أبيه، وينتهز جميع فرص الكسب التي يوفرها له مصنع أبيه وعلاقاته.

تزوج باشا منذ مدة طويلة، ورُزق بولد، وسَمِن على نحو ملحوظ، وفقد نصف شعر رأسه. وعلى العُموم كان يُمثّل في مظهره أنموذجاً لأبناء المدينة العمليين الناجحين، الواعدين بمستقبل زاهر. كان أبواه يحبانه جداً، ويبتهجان لنجاحه، في حين أنه لم يكن يزورهما إلّا نادراً، ولمدَّة قصيرة. كان كوستيا يشعر بأنه مصدر إزعاج دائم لأخيه، ولكنه مع ذلك كان واثقاً من أن أخاه يحبه.

وقد قرر كوستيا أن يحصل من أخيه على نقود، ولا سيما أنهم كانوا مدينين له بمبلغ من المال لقاء عمله، فهو كان أحياناً يعمل كالسابق في صيانة السيارات، وكانوا يطلبون مساعدته عندما تصادفهم مسائل تقنية معقدة، وكان هو يلبيهم إذا أثارت المسألة المطروحة أو السيارة نفسها اهتمامه. لم يكن المبلغ الذي يدينون له به ضئيلاً، ويكفيه لتغطية نفقات السفر، ولكن المدينين كانوا يرجونه أن ينتظر، وهو لم يكن يستطيع الانتظار.

اتفقا على اللقاء في بار البهو الأرضي في وقت الغداء، وجاء كوستيا في الساعة الواحدة، وانتظر أخاه نحو خمسين دقيقة إلى أن جاء هذا أخيراً. وبادر أخاه قائلاً بصوت عالٍ بدلاً من أن يُحيّيه:

- يالك، يا أخي، من رجل أعمال! تُحدِّد مكان اللقاء في مثل هذا المحل! آ...آ! ثم أضاف: ماذا جرى؟ هل ارتكبتَ ذنباً؟ وبعد

ذلك عانق بحرارة أخاه كوستيا، الذي نهض لملاقاته مُنَحِّياً الجريدة جانباً، وقال له بصوت منخفض:

- أهلاً، باشا! شكراً لك، على كل حال، لأنك أتيت.

لم يعجبه أن يُحدِث باشا هذا الصخب، وأن يتصرف على نحو لا ينسجم مع الأسلوب الذي يتصرف الناس به عادةً في هذا المكان. قال لأخيه: لنجلس، وسأحدثك الآن عن كل شيء، هل تشرب قهوة؟ ثقيلة؟

وقال بصوت عالٍ متوجهاً إلى عامل البار:

- قهوة إكسبرس مضاعفة!

فقال باشا بتهكم واضح: أوووه! طيب، لنجلس ونتناقش.

لاحظ كوستيا كيف يتنافر طابع البار مع مظهر باشا بسترته التي تمثل أنموذجاً للزي المحلي المنتشر بنجاح، وبحذائه ذي الطراز المماثل، ولكن الذي لم يُنَظَّف منذ عدة أيام. لقد كان باشا كلُّه مغرقاً في المحلية، ولم يكن هذا يروق كوستيا لأنه كان يحب أخاه ويعبر له دائماً عن استيائه منه.

سأله باشا بعد أن جلس: ما الذي حدث؟ حاول كوستيا أن يشرح لأخيه بهدوء ووضوح سبب استدعائه له، ولكنه ما لبث أن ارتبك وراح يُطْنِبُ ويتعثر في الحديث، معبراً عن أن النقود ضرورية بالنسبة إليه، وأنه لم يكن ليطلبها لو لم تكن ضرورية، وكما أنه لم يطلبها قط قبل الآن، كذلك لن يطلبها في المستقبل أبداً. ولكن الآن نشأت ظروف معينة، وهو سيعيدها قريباً ولا داعي للقلق بشأنها.

قاطعه باشا قائلاً: يمكنك ألَّا تكمل. كل شيء مفهوم، أنت تريد أن تعود إلى هناك. وأنا ظننت أنك فكّرتَ فعلاً بأمر جدّي؛ وأنك بحاجة حقاً إلى مساعدة.

ردّ كوستيا بلهجة المستعد لردّ الفعل هذا من جانب أخيه:

- باشا، أنا، ببساطة، لا أطلب منك سوى نقود، وإلى فترة ليست طويلة، بصفة دَيْن، وأنا حقاً بحاجة إليها، وقد شرحت لك ما الذي عزمت عليه، ولِمَ أنا بحاجة إلى النقود، وأرجو...

قال باشا بنبرة حادة:

- أنت عزمت على ارتكاب حماقة جديدة، وأنا لن أساعدك على هذا. إنه يريد الذهاب إلى موسكو! يا لها من فكرة مبتكرة وغير عادية! ثم إنك تريد مني أن أساعدك على ارتكاب مثل هذه الحماقة الغبية؛ ما الذي شَدَّك إلى العاصمة، هل مَلَأَتْ رائحتُها أنفكَ؟..

- باشا، لقد شرحت لك كل شيء. بِمَ أنت تسمع؟ أريد أن أطوف بنفسي على الجامعات، وأن أرى بنفسي وأحدّد مكاني.

وقال باشا وهو يلوّح بيده:

- تُحدّد مكانَك؟ في موسكو؟ أ.. ها..! قل هذا لشخص آخر غيري. أنت حتى هنا لا تستطيع أن تحدد مكاناً لك، وتريد أن تحدّده في موسكو! أعرف أمثال هذه القصص عن ظهر قلب. لا تضحكني يا كوستيا! أنت هنا لا تفعل شيئاً على الإطلاق، ومن باب أولى ألّا تستطيع فعل أي شيء في موسكو.

- باشا! أنا، على فكرة، أطلب منك النقود بصفة دَيْن، وإذا كنت أطلب دَيْناً، معنى ذلك أنني سأسدّده. إنني أكسب نقودي بعملي، ولا أعيش عالةً على أحد.

سأل باشا وهو يلوي شفتيه:

- أنت لا تعيش عالةً على أحد؟ أوه، حقاً؟! أنت تعيش عند أبويك، تأكل وتشرب، وتفتح البرّاد من دون أن تطلب إذناً من أحد، فهل تجلب نقوداً إلى البيت؟ وهل سألت نفسك يوماً من أين تأتي المواد الغذائية إلى البرّاد؟ أنت لم تعد صبياً صغيراً يا كوستيا، لقد أصبحت رجلاً بالغاً، ولكنك اعتدت على التطفل. أنت طفيلي يا أخي. ولهذا ترى نفسك منجذباً إلى موسكو. طبعاً! موسكو! كل الطفيليين يتوافدون إلى هناك من جميع أنحاء البلاد. هيا! سافِرْ!

رَدَّ كوستيا بصوت منخفض:

- إذا كنت لا تريد أن تعطيني نقوداً، قل هذا مباشرة. ومضى يقول وهو يضبط نفسه بكل مالديه من قوة:

- أنا لست مستعداً للاستماع إلى مواعظك التي تلقيها بهذه اللهجة. وأنت نفسك قلت إنني لم أعد صبياً.

- أنا لا أضنُّ عليك بالنقود! وحتى لو كنتَ قررتَ الزواج بالسر، أو حتى لو عزمتَ على الذهاب إلى القطب الشمالي لكنتُ قلتُ لك: تفضل خذ، لا أعدُّ هذا خسارة. أما إلى موسكو! لا، اعذرني! أنا لست عدواً لك، ولن أدعم رعونتك هذه، هل فهمت؟ لو أنك

نويت أن تقدم على أمر مُجْدٍ... أمرٍ مُجْدٍ، هل تفهم؟ أما أن تذهب إلى موسكو، أنا أعرف كيف يحدث هذا...

- ما الذي تعرفه؟

أجاب باشا بحدة:

- أعرف موسكو! هل تظن أن هناك من هو بحاجة إليك، وأنهم هناك ينتظرونك؟ هناك لا أحد يهتم بأحد. طفيليون فحسب. يلفّون ويدورون فقط. عندما أذهب إلى هناك وأعود أجد نفسي بحاجة إلى أن أغتسل بعد موسكو هذه؛ لو لم يكن هناك شركاء أتعامل معهم لما وضعت قدمي فيها. ويا لهم من شركاء! إن شركاءنا الموسكوفيين هؤلاء لا يعتبروننا بشراً، هل تفهم؟ وأنت تريد أن تحدثني عن موسكو.

قال كوستيا بصوت خافت جداً:

- حسنٌ، لقد فهمت، سأحل كل المسائل بنفسي وسأتقصى الأمور. لن أطلب منك أي شيء بعد الآن.

قال باشا وهو يميل برأسه جانباً:

- وأنت يا أخي لن يعطيك أحد شيئاً بعد الآن. اطمئِن. أنت لديك يدان ذهبيتان، ورأس موهوب. وهنا مجال الأعمال واسع شاسع. اشتغل بعمل ما، وأنا وأبوك سنساعدك، دائماً. وأنت تعرف هذا. ما عليك سوى أن تشتغل بعمل ما معقول، وأنا دائماً سأساعدك.

قال كوستيا وهو ينظر مباشرة إلى الطاولة أمامه:

- ها أنا قد طلبت منك أن تساعدني، فكيف ساعدتني؟ لا بأس! سنرى فيما بعد.

خبط باشا الطاولة بيده، فأصدرت منفضة السجائر رنيناً عالياً ما جعل الجالسين إلى الطاولات المجاورة ينظرون نحوهما، وقال بصوت عالٍ:

- ما الذي سنراه؟ ماذا بك؟... ألَمْ تفهمْ أننا لن نسمح لك بالذهاب إلى موسكو، ليس لك هناك أي شيء تفعله!

فقال كوستيا وهو يستعد للنهوض من وراء الطاولة:

- مهلاً... بخصوص السماح أو عدم السماح، لستَ أنتَ من يقرر، يا باشا. كفى، لقد انتهى الحديث.

فقال باشا بصوت أقرب إلى الصراخ:

- هيا اجلسْ، إذا لم يكن في رأسك مخ، فإن الآخرين سوف يفكرون نيابةً عنك، أقول لك اجلس يا بن الـ...!

فقال كوستيا بعد أن وقف:

- يعني أنت أيضاً ابن الـ...!

لم يفهم باشا القصد، وسأل: ماذا؟

فأجابه كوستيا بصوت منخفض وهو لا يزال واقفاً:

- أنت قلت: «يا بن الـ..» وأمّنا أنا وأنت واحدة، معنى ذلك أنك. أنت أيضاً ابن الـ..».

- كوستيا، لقاء هذه الكلمات... هل تعي على العموم ما تقوله؟

- أنا من جهتي أعي. ولكن أنت، يا باشا، ابق هكذا عالةً على أبيك، مُدّعياً أنك تكدح. من تكون أنت دون أبيك؟ إنك لا تساوي شيئاً من دونه، إنك أنت الطفيلي، فهمت؟ هيا اجلس هنا، ولتزدَدْ صلعاً وسُمنةً. وإياك أن توجه لي أية نصيحة بعد الآن.

قال باشا قرب المخرج بصوت عالٍ كالصراخ:

- ما... ذا !

ثم أضاف وهو يقفز عن كرسيه الذي وقع على الأرض بصخب: كيف تجرؤ على قول هذا؟...

والتفت نحوهما ببطء جميع روّاد البار وكل الموجودين في بهو الفندق.

ورد كوستيا بكبرياء، شاعراً بنفسه أنه من أبناء هذا المكان:

- باشا، كُفَّ عن الضجيج، هنا لا يجوز أن تثير مثل هذه الضجة...

ثم التفت نحو عامل البار وقال له بمنتهى الدماثة:

- الحساب من فضلك.

مضى أسبوع منذ أن جرى هذا الحوار بين كوستيا وأخيه الأكبر، وخلال هذا الأسبوع لم يستجدّ أي أمر جيد مع كوستيا. وساء الطقس، وهمد الخريف نهائياً وشرع يتلاشى، حتى إنَّ المطر هطل مرتين ممتزجاً بالثلج.

في اليوم التالي بعد لقائه بأخيه التقى كوستيا صديقه القديم يورا، الذي اعتزم يوماً أن يفتح معه محلاً خاصاً بهما لصيانة السيارات. وقد استمر يورا يعمل في مجال السيارات، وكان يستدعي كوستيا دورياً للعمل. ويعجز عن تصفية الحساب معه عن العمل المنجَز.

ولم يكن لقاؤهما هذا موفقاً البتة، والنتيجة كانت واضحة سلفاً؛ إذ إن يورا كان يقول إنه غير قادر الآن على دفع المبلغ المستحق، ولن يستطيع التسديد إلّا في بداية الشهر القادم، أو على أقساط. وكان كوستيا يطالب، ويشتم، بل ويهدد. ثم كاد في النهاية أن يخلق جواً هستيرياً، وغادر من دون كلمة وداع. وكان يورا في أثناء ذلك يعتذر، ويقلب كفيه دلالة العجز، ولم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً.

وفي اليوم الثاني، بعد هذا اللقاء، تحادثا هاتفياً، وتصالحا، وتلاقيا ثانية، وأخذ كوستيا من يورا بعض النقود القليلة التي كان بمقدوره أن يدفعها آنذاك.

أصبح الطقس سيئاً للغاية، ولكن كوستيا كان يتخوف من بقائه في المنزل، فراح يتسكع في شوارع المدينة. كان يتخوف من أن يكون باشا قد أخبر والديه بالحديث الذي دار بينهما، وعندئذ يغدو لا مناص من سماعه مواعظ ثقيلة الوطأة وعديمة المعنى. وهكذا راح يتسكع بالمعنى الحرفي للكلمة. لم يكن باستطاعته أن يذهب للدراسة، أو العمل، أو حتى المطالعة، ولم يكن يخطر في باله أي شيء. جرّب أن يذهب إلى السينما، ولكنه لم يستطع أن يركز انتباهه على موضوع الفيلم، وهو ببساطة لم يكن يفهم شيئاً مما تعرضه الشاشة، ولِمَ يجري هكذا؟ إذ

إن موسكو، والضيق الذي يسببه لـه عـدم امتلاكـه نقـوداً، والأهـم مـن هذا شعوره بالإحباط المطبق، أمورٌ كانت تجعله عاجزاً عـن أن يفكـر في أي شيء.

لم يكـن ثمـة مـا يـدخل الـسكينة إلى نفـس كوسـتيا سـوى وجـوده صباحاً في بار بهو الطابق الأرضي في فندق«بويما».

ولكـن، ويـا للأسـف، لم يكـن باسـتطاعته أن يجلس هنـاك طـوال النهار، إذ كان هذا محرجاً نوعاً مـا، فجيبـه خـالٍ تقريبـاً مـن النقـود؛ ثـم حتى لو كان يملك نقوداً، لم يكن يستطيع أن يشرب كل هذه الكمية من القهوة. بيد أنه كـان يـسرع إلى البـار منـذ الـصباح البـاكر ويقـضي هنـاك أحب ساعتين صباحيتين إلى قلبه.

وبعـد مـضي أسـبوع عـلى الحـديث المـزعج الـذي جـرى مـع أخيـه الأكبر، خرج كوستيا مـن البيـت في الـساعة الثامنـة والنـصف كالعـادة. فقد انتظر إلى أن غادر أبوه إلى العمل كي لا يلتقيه بالمصادفة، ثـم غـادر هو بعد أن غسل وجهه وارتدى ملابسه بسرعة.

كـان المطـر الممتـزج بـالثلج يهطـل بغـزارة. وبـالقرب مباشرة مـن مدخل بنايتهم الضخمة التي بنيت في العهـد«الـستاليني»، والتـي كـان يقيم في معظم شققها رؤسـاء المنشآت الـصناعية المحليـة، كانـت تقـف جارتهم التـي تـسكن في الطـابق العلـوي، مرتديـةً معطفـاً جلـدياً أسـود اللون، وقد أمسكت بإحدى يديها مظلة، وبالأخرى مِقْوَداً تحيط نهايتُـه بعنق هكتور، وهو كلب ضخم من نـوع دوبرمـان، يخـاف منـه الجميـع، ولكنهم لم يستطيعوا إجبار مالكيه على أن يضعوا كمامةً حول فمه.

كان هكتور هذا يقف على حوض زهور صغير مغطى بثلج مائع أمام مدخل البناء، وقد قوّس ظهره بقدر ما يستطيع، وراح يتحصّر بشدة ويتغوّط. وقد تجمع برازه على الثلج في كومة ذات أبعاد بشرية تماماً.

راقب كوستيا كل هذا، وحدّق بإمعان إلى عيني الجارة محاولاً إحراقها بنظرته، بل هَمَّ حتى بتوجيه ملاحظة إليها... ولكنه فكّر فجأة: «فليعملها على رأسها هي بالذات، ما شأني أنا بهذا..».

ومضى في طريقه متجاوزاً إياها، وخرج من الفناء، وسار على الكورنيش باتجاه الفندق. كان الثلج الممتزج بالمطر كثيفاً إلى درجة جعلت الضفة الأخرى من النهر غير مرئية. أسرع كوستيا في مشيته لكي يصل في أقرب وقت إلى الدفء والجو الأنيس ورائحة القهوة والسجائر الفاخرة.

كان الثلج المائع شبه الشفاف يلتصق بملابسه بعد أن بلل شعره على الفور. وكانت السيارات التي تتجاوزه تسير بسرعة كبيرة فيتطاير من تحت عجلاتها رذاذ هلامي وينتشر في جميع الجهات.

رفع كوستيا قبة سترته، وسار بخطاً واسعة، حانياً ظهره بعض الشيء، باتجاه المدخل الحجري والأعمدة البيضاء، وانعطف نحو الفندق من نقطة تتيح له أن يجتاز موقف السيارات. لم يكن الموقف موحلاً، وإلى ذلك فإن سواد الإسفلت كان يظهر واضحاً، ويبدو أن السيارات التي كانت واقفة قرب الفندق قد غادرت للتو، ولم يتح للثلج بعد الوقت الكافي للهجوم كما ينبغي على الأماكن التي غادرتها.

وبينما كان كوستيا سائراً عبر موقف السيارات، وناظراً عملياً إلى مواطئ قدميه، شاهد على الإسفلت المُبْتَلّ شيئاً، شاهده ولكنه تخطّاه بقوة الاستمرار، بل إنه خطا نصف خطوة أخرى قبل أن يرتعد في النهاية، ويتوقف وينظر، ثم يحدّق إلى الشيء الذي تخطّاه.

على الإسفلت المبتل، ويمكن القول وسط بقعة ماء، كان ثمة محفظة جيب جلدية سوداء كبيرة. إنَّها محفظة نقود، ويبدو بوضوح أن سيارة قد مرت فوقها، ولكن كما هو واضح محفظة سميكة، وكانت أطراف بعض أوراق النقد المبللة تبرز منها.

تلفت كوستيا حواليه، وشد قامته، وتلفت مرة أخرى بتمهل، ثم شمل بنظرة سريعة ومتنبهة كلَّ ما حوله. كان شديد الحرص على ألّا يبدو أحمقَ، وألّا يسخر منه أو يخدعه أحد. وقد تَمَلَّكَهُ ولفَّه شعور بالقلق والخطر، وبأن ثمة شيئاً ما غير جائز يحدث.

لم يكن يوجد أحد بالقرب منه، وحتى عند أبواب الفندق لم يكن هناك حارس، وعلى العموم كان المكان خالياً من الناس. انحنى كوستيا وتناول المحفظة، ودسها في جيبه حتى من دون أن ينفضها أو يمسح عنها الماء البارد. اقترب من المدخل بسرعة، وصعد متجاوزاً درجتي المدخل قفزاً، ودخل إلى بهو الفندق. كان قلبه يخفق بشدة. ألقى التحية على النساء الواقفات خلف منصة الإدارة، وتلفت متوتراً، ونفض معطفه بِكُمَّيْه فتناثر منه الرذاذ على الأرض. وقف بضع ثوان ثم توجَّه بسرعة إلى دورة المياه.

لم يكن يوجد أحد في قسم المغاسل؛ تجاوزه كوستيا إلى قسم المراحيض ملقياً في طريقه نظرة خاطفة إلى المرآة، ورأى نفسه بشعره

المبتل الأشعث وعينيه المتقدتين. دخل إلى أحد المراحيض وأوصد الباب وأنزل غطاء كرسي التواليت وجلس فوقه، وبعد ذلك فقط أخرج المحفظة من جيبه بحذر وفتحها.

كانت المحفظة كبيرة وطويلة، وفيها طَيَّة نقود، وجوازان، ولم تكن هذه الأشياء موضوعة في جيوبها أو ثناياها، بل بين دفتيها مباشرة، كما لو كانت في كتاب... النقود كانت كثيرة، وقد أصاب بعض البلل الأوراق النقدية المرزومة بورقة المصرف الممزقة. أوراق نقدية من الفئات ذات القيمة العالية، روبلات، الكثير من الروبلات. الرزمة كانت على الأرجح، كاملة تقريباً. تفحصها كوستيا ووضعها على ركبته. ثم أمسك بالجوازين: أحدهما عادي لإثبات الشخصية والآخر جواز سفر إلى خارج البلاد. وقد ابتلّا أيضاً كلاهما. فتح كوستيا الجواز العادي ونظر إلى الصورة الفوتوغرافية، فشاهد وجهاً نحيلاً متطاولاً، ومنكبين مكسوتين بسترة، وقميصاً وربطة عنق. وقرأ الاسم الثلاثي: «سكاتشكوف فلاديمير نيكولايفتش». وفلاديمير هذا من مواليد مدينة بارابينسكفي مقاطعة نوفوسيبيرسك، والجواز صادر في موسكو. وعندما نظر كوستيا إلى عام الولادة لم يستطع أن يُهدئ ضربات قلبه، وبصعوبة استطاع أن يحسب عمر السيد سكاتشكوف، إنه في الرابعة والثلاثين. أما جواز السفر إلى الخارج فالصورة الفوتوغرافية فيه ملونة، وفلاديمير نيكولايفتش يرتدي في هذه الصورة كنزة بيضاء ويبتسم. ويحتوي الجواز على عدة تأشيرات وعشرة أختام. أمسك كوستيا بالجوازين ودسهما في جيبه، وشعر بأن العرق يتفصد من جسمه كله.

دخل أحدهم دورة المياه، وتجاوز قسم المغاسل، وأخذ يقترب أكثر فأكثر، ثم جذب باب مرحاض كوستيا، فسعل هذا بصوت عالٍ، وأطلق تيار الماء. وسمع صوتاً من خلف الباب يقول: أوه، عفواً!

لاذ كوستيا بالصمت، وجلس هادئاً، إلى أن دخل الشخص غير المرئي المرحاض المجاور، وزَحَر، ثم سُمِعَ خرير الماء وقرقعة حوض المرحاض، وأزيز سحّاب البنطال. وبعد ذلك غسل الرجل يديه على المغسلة، وجففهما بهواء المجفِّفة الحار، ثم غادر المكان.

فتح كوستيا المحفظة وتفحصها، فوجد في الجيب الكبير بعض الروبلات وخمس ورقات بنكنوت من فئة المئة دولار، وبطاقة سفر بالطائرة من موسكو وبالعكس، مُغَضّنةً ومطويةً من المنتصف. أما الجيوب الصغيرة فكانت تحتوي على بطاقات ائتمان، وبطاقات تعارف وزيارة. لم يقربها كوستيا، ونظر إلى القسم الثاني من المحفظة. رأى هناك صورةً موضوعةً تحت رقاقة شفافة، تظهر فيها امرأة وطفلتان، إحداهما في السادسة والأخرى في الثالثة من عمرها. المرأة شقراء وتبتسم، والطفلتان ترتديان ثياباً مزركشة، وعلى رأس الصغيرة تاج أميرة، ومن خلف الجميع ثمة غرفة تظهر عبر نافذتها شجرة رأس السنة مكسوة بالزينة. وعثر أيضاً على بعض الأوراق عديمة القيمة: فواتير، ووريقات، وغلاف علكة مُلوّن.

تأمل كوستيا ملياً لسبب ما هذا الغلاف الملوّن بالذات، ثم أعاده إلى مكانه، وراح ينظر من جديد إلى صورة المرأة والطفلتين. ثم أخرج من جيبه الجوازين، ولسبب ما نظر إلى الختم الذي يحدد مكان الإقامة، وقرأ هناك العنوان الآتي:

«مدينة موسكو، شارع الطيار بابوشكين». ولكن هذه المعلومة لم تعنِ لكوستيا شيئاً، بيد أنه لسبب ما ابتسم بمرارة. لقد كان طوال هذا الوقت لا يفكر بأي شيء، بل كان يشعر كيف يدق قلبه بعنف.

أعاد كوستيا رزمة النقود إلى مكانها، ووضع الجوازين أيضاً في جيب المحفظة، ولسبب ما أطلق تيار الماء وخرج من المرحاض. غسل يديه طويلاً بالماء الفاتر، وعصر مرتين الصابون السائل الوردي الرائحة على راحة يده وفرك كفيه به، وغسل وجهه بالماء وهو ينخر بصوت عالٍ، وضحك، وأخرج من جيب بنطاله رزمة مناديل ورقية ومسح وجهه ويديه، وألقى بالمنديل المبتل في سلة المهملات، وخرج من دورة المياه، وسار على خط مستقيم عبر البهو باتجاه قسم الإدارة.

قال للمرأة التي تضع نظارة وتجلس خلف المنصة:

- صباح الخير.

فأجابته: صباحُه.

سألها: هل لي أن أعرف من فضلك، فلاديمير نيكولايفتش سكاتشكوف من موسكو في أية غرفة...(وهنا تلعثم كوستيا لحظة ثم أكمل بعد أن وجد الكلمة المناسبة) ينزل؟

قالت المرأة وهي تنقر على أزرار الحاسوب: لحظة... ثم أجابت بسرعة: سكاتشكوف في الغرفة ٣١٦.

وسألها كوستيا ثانية :

- هل لي أن أعرف فيما إذا كان الآن في غرفته أم لا؟

فصاحت المرأة بصوت عالٍ متوجهة إلى فتاة تجلس خلف منصة طويلة:

- أوليا[1] انظري الرقم ٣١٦، هل النزيل في غرفته أم لا؟

أجابت أوليا: المفتاح غير موجود، على الأرجح هو في غرفته.

سأل كوستيا المرأة التي تضع نظارة:

- هل بإمكاني أن أذهب إليه؟

- وهل هناك اتفاق مسبق معه؟

أجابها كوستيا: نعم.. هناك اتفاق.

- على كلٍ يمكنك أن تتصل به هاتفياً.

- لا..لا.. من الأفضل أن أذهب إليه شخصياً.

- المصعد إلى الأمام. الطابق الثالث.

قال كوستيا وهو متوجه نحو المصعد: شكراً، سأجده.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها إلى القسم الداخلي من الفندق. المصعد جديد ومغطى كله بالمرايا. وقد وُضعت مقاعد عند مداخل المصاعد في الطابق الثالث، واصطفت الغرف على طول الممر يميناً ويساراً. سار كوستيا إلى اليسار حسبما يشير السهم. كانت السجادات ذات اللون الأخضر والبني المفروشة على الأرض تُخْمِد صوت خطواته، وفي أقصى الممر كانت خادمة الغرف منهمكة في عملها.

---

(١) أوليا: تصغير اسم أولغا (المترجم).

على مقبض الباب في الغرفة ٣١٦ عُلِّقت لائحة كُتِبَ عليها: «يرجى عدم الإزعاج». وكانت تُسمع من خلف الباب أصوات صادرة عن التلفاز، وضجة ما أخرى.

وقف كوستيا أمام الباب، وأصاخ السمع، وطَفقَ قلبه يدق بقوة أكبر. ظل واقفاً نحو نصف دقيقة، وأخيراً دق الباب. وجاء الدق متهيباً. أصاخ كوستيا السمع من جديد ولم يسفر الدق عن أي نتيجة. عندئذ دق بقوة أكبر. ومرة أخرى من غير نتيجة. فعمد إلى طرق الباب بكل قبضته مصدراً صوتاً عالياً. ولم يحدث أي شيء، حتى إن كوستيا ضحك في سره ساخراً من سخافة الموقف المتناهية، فكأنه هو بالذات يحتاج إلى شيء ما لدى هذا الرجل، وهذا لا يريد أن يستجيب لِطَرَقاته على الباب.

عندئذ شرع كوستيا يدق الباب بقوة أكثر من ذي قبل؛ واستمر في ذلك مدة طويلة، ثم سمع جَلَبَةً ما خلف الباب، وارتفع صوتٌ من الواضح أنه صوت امرأة تقول شيئاً ما، ولكن كوستيا لم يستطع أن يميز ما تقوله بالضبط. وسمع في النهاية صوت رجل يسأل بصوت عالٍ يأتي من الداخل: مَنْ هناك؟

كان من الواضح أن الصوت يصدر من آخر الغرفة، وأن المتكلم لم يدنُ بعد من الباب.

قال كوستيا وقد تضرج كله بالحمرة: عفواً... أنا.. ثم أردف بصوت أكثر ثباتاً - افتحوا من فضلكم!

سمع كوستيا الرجل يقول وهو يقترب من الباب:

- ما كلُّ هذا الإلحاح في الطرق، آ؟! أي فندق خر... هذا!

ثم ميّز كوستيا وقع خطوات، وأصوات تذمّرٍ، وصليلاً قصيراً عند الباب، وأخيراً فُتح الباب، ولكن الفتحة كانت ضيقة جداً، وشاهد كوستيا أمامه شعراً خفيفاً فاتحاً منفوشاً. بجميع الاتجاهات، ووجهاً متطاولاً منتفخاً تتوسطه عينان صغيرتان حمراوان.

زكمت أنف كوستيا رائحة خمرة منبعثة من فم الرجل:

- إيه! ماذا تريد؟

وسُمع صوت التلفاز بوضوح أكبر، وتبيّن أن صوت الضجيج الغامض هو صوت ماء يسيل من صنبور أو من فتحة رشاش ماء.

سأل كوستيا: سكاتشكوف فلاديمير نيكولايفتش؟

- هكذا بالضبط، فلاديمير نيكولايفتش، وأنت من تكون؟

أردف كوستيا سائلاً، من دون أن يعرف البتة ماذا عليه أن يفعل، وكيف عليه أن يتصرف: ألا تسمح لي بالدخول؟

ردّ الوجه المنتفخ:

- هذا ما كان ناقصاً! ما الذي تريده؟

فقال كوستيا: لا شيء... يعني... على العموم، يعني...

ثم أخرج من جيب معطفه المحفظة وأراها لمحدّثه:

- هل هذه لك؟

انفتح الباب كُلّياً. وظهر الرجل ذو الوجه المنتفخ ساتراً جسمه برداء أبيض مُوَبَّر من دون أن يرتدي تحته شيئاً البتة. وقف حافياً وممسكاً الرداء بيده، إذ لم يكن متزنّراً بحزام.

إلى اليمين من باب الغرفة ظهر باب الحمام مفتوحاً، ومن هناك كان يصدر صوت الخرير. وخلف الرجل الذي يلبس الرداء كان يظهر ممر قصير يؤدي إلى غرفة، وعند قدمي الرجل كانت تستقر على الأرض جزمةٌ نسائيةٌ ذاتُ كعبٍ عالٍ وحذاءٌ رجاليٌ ذو مقدَّمةٍ حادةٍ.

قال صاحب الرداء: مهلاً.. هذه محفظتي أنا!

فسأله كوستيا: والآن هل يمكنني أن أدخل؟

فأجاب الرجل: ادخل.

دخل كوستيا، وانغلق الباب خلفه، وما إن خطا الخطوة الأولى حتى وجد نفسه في مكان غير مُهَوّى ومليء بالدخان، ويعلو فيه ضجيج التلفاز. وقد عبقت به أيضاً رائحة الغرفة التي جرى فيها تعاطي الخمرة وقتاً طويلاً.

صاح صاحب الرداء الأبيض بصوت أجش من دون أن يحول بصره عن كوستيا والمحفظة: يانا، أغلقي التلفاز، كم مرة تريدينني أن أرجوك!

قال كوستيا: إذا كانت لك فخُذْها

سأله الرجل: ومن أين حصلت عليها؟

أجابه كوستيا: اسمع، أنا وجدتها عند مدخل الفندق. كانت ملقاةً على الإسفلت. فيها وثائق تخصك.. جوازك.. وهكذا عرفت...

- نعم...هكذا؟! أمر غريب! على الأرجح سقط مني عندما كنت أخرج من التاكسي.

قال الرجل هذه الكلمات وهو يتناول المحفظة من يد كوستيا ويفتحها، وصاح ثانية:

- قلت لكِ أغلقي التلفاز!!!

انسلَّتْ من وراء ظهره امرأة ذات شعر أسود كالفحم، مبتّل بالماء، وقد لفّت جسمها بمنشفة كبيرة، وراحت تسير على أصابع قدميها. ثم خَفَتَ صوت التلفاز.

قال السيد سكاتشكوف وهو يتفحص محتويات المحفظة:

- أمر غريب فعلاً! إنني لا أتذكر أي شيء.

ثم أردف وهو يغمز لكوستيا بعينه:

- كم أشعر بالاستياء من نفسي، يا أخ! لا يجوز الشرب هكذا! أنت ترى ما الذي يمكن أن يحدث.

ثم سأل وهو ينظر بإمعان إلى رزمة الروبلات الملفوفة ببقايا ورقة التغليف المصرفية:

- يعني... المحفظة كانت ملقاةً على الأرض، وأنت وجدتها؟

فأجابه كوستيا: هكذا بالضبط.

سأل فلاديمير نيكولايفتش كوستيا وهو يمسك برزمة النقود الناقصة:

- وأنت، كما أرى، أخذت لنفسك المبلغ المطلوب؟ ولكن على كلٍّ شكراً لك يا بن بلدي، شكراً على الوثائق! أنقذتني من ورطة! والآن هيّا.

فتح الرجل الباب أمام كوستيا وكاد يدفعه دفعاً إلى الممر.

خرج كوستيا، وانصفق الباب خلفه، فوقف واجماً وظل بضع ثوان من دون أن يحرك ساكناً. وتناهى إلى سمعه من خلف الباب صوت أجش عال يقول:

- أتتصورين! لقد أضعت أمس محفظتي، سقطت مني! وفيها كل شيء، وقد عثر عليها هذا الشخص الغريب الأطوار، ومع أنه أخذ منها نقوداً جاء إلى هنا ليتلقى الشكر فوق ذلك، هل هذا طبيعي.. لا؟!

لم يتابع كوستيا الاستماع. سار بسرعة، بل، بعبارة أدق، اندفع يهرول نحو المصعد. وسرعان ما وجد نفسه يسير على الكورنيش، ويوجه شتائم مقذعة في سره. كان الثلج المائع يصيب وجهه وعينيه، وبدأت عيناه تدمعان بسبب ذلك.

سار كوستيا طويلاً وهو على هذه الحال، وانعطف إلى الشارع العام، وطَفِقَ يسير ويسير حتى تبلل كله وآلمه البرد، فصعد إلى حافلة ترولي باص شبه فارغة من الركاب، وقد تغشى زجاج نوافذها بالبخار المتحول إلى عرق. انتابه شعور بالغثيان، وراح يدمدم بكلمات ما بصوت يكاد لا يسمع، ويمر بإصبعه على الزجاج المغشى بالعرق.

نزل من الحافلة قرب جامعته، وعرّج على المبنى الرئيس فيها، وتسكع طويلاً في فناء المبنى وممراته الخالية. لم يكن ثمة مكان آخر يذهب إليه. وبعد ذلك قُرِع الجرس وامتلأ مبنى الجامعة بالطلاب المندفعين زُرافاتٍ من قاعات الدراسة.

اتصل كوستيا بيورا هاتفياً وقال له إن من الضروري أن يتقابلا، فأجابه إنه لم يحصل على نقود بعد، فرد عليه كوستيا أنه بحاجة إلى الحديث معه لا أكثر. ولكن يورا كان مشغولاً بأمور كثيرة، وطلب منه أن يكون اللقاء بعد انتهاء العمل.

عندئذ اتصل كوستيا بصديقته السابقة، ولكنها لم ترد على الفور. كانت سفيتا، وهذا هو اسمها، قد أنهت دراستها في كلية الطب وتتدرب عملياً (طبيبة مقيمة) في مستشفى البلدية الأول. ثرثر معها لبعض الوقت، وحكى لها طرفتين أضحكتاها، ثم قالت بعد ذلك إنها لن تستطيع الاستمرار في الحديث، وهي مسرورة للغاية لأن أموره على ما يرام، ولأنه اتصل بها.

ولكن كوستيا لم يتحسن مزاجه، ولم يعرف كيف يقضي بقية نهاره. لقد كان نهاراً فظيعاً!

ولم يتح له أن يقابل يورا إلّا مساءً في كافتيريا «فستوك». وما إن جلس إلى الطاولة حتى أدرك كم هو تعب وجائع.

سأله يورا: ما لك يا كوستيا؟

ولكن كوستيا لم يفصح عما به، بل طلب فودكا وطبق بيلمِني[1]، وقال لصديقه إن كل شيء سينتهي إذا امتنع عن الشرب معه. يورا لم يرفض، إنه صديق قديم لكوستيا منذ أيام المدرسة. وهو شخص قوي

---

(١) بيلمِني: أقراص صغيرة من العجين محشوة بلحمة مفرومة ومسلوقة، وهي شبيهة بأقراص الشيشبرك (المترجم).

جداً، ذو يدين ضخمتين، ورأس كبير، ووجه مستدير، ولكن كتفيه ضيقتان. وكان يصعب عليه جداً أن يجد ملابس تناسبه. وهو يضع على عينيه نظارة غير لائقة على الإطلاق.

شربا وأكلا أقراص البيلمِني. وتحدث يورا عن الجميع وكأنهم فقدوا عقولهم بعد سقوط الثلجة الأولى.

استفاقوا! الشتاء حلَّ فجأة كما يحدث دائماً، فاندفعوا كلهم معاً لوضع المطاط الشتوي على النوافذ. ومع ذلك تراهم يمتعضون من وجود طوابير. ألم يكن بإمكانهم فعل ذلك في وقت سابق...

تابعا الجلوس واستمرا في الشرب، وعندئذ روى كوستيا مغامرته الصباحية. رواها بالتفصيل، وأصغى يورا له بانتباه شديد. استمع حتى النهاية، وفجأة أصبح جدياً للغاية وهدأ، وبدا واضحاً أنه استغرق في التفكير. وفجأة سأل: أنت وجدت هذه النقود وأرجعتها؟

ومضى يقول بجدية بالغة، بل حتى بغضب:

- لأي سبب فعلت هذا؟ أنا لم أعثر في حياتي على مثل هذا المبلغ، وأنت أيضاً لن تعثر مرة ثانية على مثله أبداً. فلماذا أعدت هذه النقود؟

ومضى يورا يقول بغضب أشد: أنت من تكون حتى تفعل ما فعلت؟ أنت ماذا، الشخصية الرئيسة؟ هل أنت رئيس الكرة الأرضية؟ أم لعلك الرب؟ آ؟! أخذوا النقود من شخص ما وأعطوك إياها، وأنت قررت:« لا!!! أنا أعرف كل شيء أفضل من الجميع». وأعدتَ النقود! أنت غبي! وها أنت قد تلقيت ما تستحقه. كيف تجرأت على فعل هذا؟

كان يورا يتكلم بقناعة عميقة وانفعال شديد. فبادر كوستيا إلى الرد:

- يورا! لو لم تكن هناك وثائق لما كنتُ سلمت النقود لصاحبها، ولكن كانت هناك وثائق، وكان من الواضح أن الشخص، على الأرجح، يقيم في الفندق...

ولكن يورا قاطعه قائلاً:

- وثائق؟! كان بإمكانك تسليم الوثائق لإدارة الفندق. وكان هو سيسعد بهذا، ويشكرك. أو تعرف ماذا كنت سأفعل أنا؟ كنت سآخذ المحفظة، وأبتعد عن المكان بقدر ما أستطيع، وألقي بالوثائق والمحفظة معاً، وأحتفظ بالنقود، من دون أن ينتابني أي شعور بالحيرة أو القلق. ألا تصدق؟ هكذا كنت سأفعل بالضبط، وسأرى أنني فعلت كل شيء بشكل صحيح، وسأشعر بأنني إنسان صالح، لأنني وجدت هذه النقود. أتدري لماذا؟ لأنهم أخذوها من شخص ما وأعطوني إياها. ومن أكون أنا حتى أجادلهم في ذلك؟

وحاول كوستيا أن يعترض:

- يورا، ما هذا الذي تختلقه؟ أخذوها، أعطوها؟...

قال يورا بصوت عالٍ وهو يهز رأسه:

- نعم! هكذا تماماً! وأنا الآن غاضب ومغتاظ منك حقاً، فهمت؟ ما هذا الذي اقترفته؟..

وظلّا طويلاً يتجادلان ويشربان، ثم بعد ذلك ضحكا طويلاً، وانتقلا إلى محل آخر، وتقابلا مع فتيات، وضحكا أكثر، وشربا أكثر. وكان يورا هو المُضيف.

صباحاً لم يستطع كوستيا النهوض مبكراً.

استيقظ متأخراً، وشعر بأنه ليس على ما يرام. ولحسن الحظ لم يكن أحد في البيت. ظل طويلاً مستلقياً على السرير، ثم نهض وشرب الكثير من الماء من إبريق الشاي مباشرة، ومكث طويلاً في حوض الاستحمام. ثم حلق ذقنه وارتدى ملابسه واستعد للخروج.

خرج كوستيا من البيت عند الظهيرة، وكان البرد ليلاً قد اشتد إلى درجة الصقيع، وأصبحت الأرض زلقة. بَيْدَ أن الثلج لم يهطل، وكان الهواء البارد منعشاً، وشفّافاً وصِحِّياً. ذهب كوستيا إلى الكورنيش، وتوقف هناك. لم يكن بمقدوره الذهاب إلى بار الفندق. لقد أدرك أنه لن يُقْدِمَ على الذهاب إلى هناك، وسبب هذا لم يكن حتى الخشية من أن يصادف هناك سكاتشكوف، بل كان ببساطة تقززه الشديد من أن يجد نفسه من جديد في ذاك المكان، حيث عانى من شعور بالضيق لا يطاق، وحيث عَرِقَ ظهره بغزارة، ودق قلبه بعنف وهو في المرحاض. ارتسمت في ذاكرته بوضوح صورة أوراق البنكنوت الخمس من فئة المئة دولار، وغلاف العلكة الملون، والصورة الفوتوغرافية التي تظهر فيها الطفلتان وشجرة رأس السنة. وتذكر الصوت الأجش، والرداء الأبيض الموَبَّر، والمرأة النحيلة ذات الشعر الأسود... ولكن النقود كانت تلحّ على ذاكرته أكثر من كل ما عداها.

وقف كوستيا حائراً كما كان يقف بالأمس، من دون أن يعرف إلى أين يجب أن يذهب. لم يكن يدري لمن يمكنه أو ينبغي عليه أن يهتف، ومع من يمكنه أن يتحدث... كما أنه لم يكن يدري ماذا يفعل لكي ينسى هذه النقود، وما الذي يجب عليه القيام به كي لا يتأسف عليها...

كان يقف على الكورنيش ويدرك بحدة شديدة أنه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، يدرك أنه لا يدري كيف يتخلص من كل هذا، وكان من الواضح لكوستيا بجلاء أنه لن يستوعب كل هذا في وقت قريب...

استشفاء بقوة النوم

كانت حركة السير نشطة جدّاً ومتواترة، وبكلا الاتجاهين، وجاء الصباح مكفهرّاً، مثلجاً - ممطراً، لكنّه دافئ. وكان آذار يزحف نحو نهايته، بيد أنَّ الثلج ماانفك يهطل ويهطل كل يوم؛ ثلج سمج لا معنى له، كما يكون عادة منذ آخر شباط وحتى نيسان. إنّه الثلج الذي يقول له أي سائق سيارة، وأيّ سائر في الشارع، أو أيّ ساكن في المدينة أو على أطرافها، بتذمر صامت:« -إيه، توقّفْ! إلى متى؟ وما لزومك! كفى..»

كان فاديم، أو«فاديك» كما يدعوهُ أقاربه ومعارفه وزملاؤه، بل حتى أبناء أقاربه ومعارفه وزملائه، يقود سيارته في النسق الأيسر الأخير وسط رتل كثيف من السيارات. وكان الرتل يتحرّك، في معظم الأحيان، ببطء تارة وبسرعة تارة أخرى، ولكن كان يمكن أن يتوقف في أيّة لحظة، ويشكل اختناقاً مروريّاً، وكان على فاديك أن يشغِّل بخّاخ الماء لزجاج السيارة والمسّاحتين بين فينة وأخرى لإزالة الثلج المائع المتساقط، وكان مذياع السيارة يجهر بخبرٍ إثر خبر.

فاديك كان في طريقه إلى مكان عمله، وكان يشعر بأنَّه يتأخَّر؛ بل، بعبارة أدقّ، كان واثقاً بأنَّه سيتأخَّر، ولكن التأخّر في هذه المرّة كان غير

جائز البتة، وعلى العموم لم يكن جائزاً أمس أيضاً، وأوّل أمس. في كل مرّة كان فاديك يرغب في أن يتوجّه إلى العمل مبكراً، ولكنّه لا يخرج من البيت إلّا ضمن حدود الإمكان، ويجد سيارته مغمورة بالثلج، وينبغي مسحها على وجه السرعة، وقبل ذلك كان عليه أن يحلق ذقنه، ولكنَّ الشفرة أصبحت قديمة، وكعادته نسي أن يشتري قبل ذلك شفرة جديدة. واستغرق وقتاً طويلاً في الحلاقة بالشفرة المثلَّمة، وكان في أثناء ذلك يقول لنفسه بأنَّه سيُعرِّج اليوم حتماً على المتجر ويشتري شفرات جديدة... و... ثمة أشياء أخرى كثيرة يجب أن يشتريها.

تابع فاديك السير، وكانت المساحتان تزيلان الثلج المائع عن زجاج السيارة، ولكنَّهما لا تتيحان رؤية العالم الخارجيّ بوضوح. من الضروري تبديل مطاطهما. كان فاديك يريد الوصول إلى عمله، لكن حركة السير أخذت تتباطأ، ورتل السيارات المتّجهة إلى مركز المدينة تكاثف إلى الحدّ الأقصى، وأخيراً توقّف كلُّ شيء، وماعت الأضواء الحمراء المنبعثة من السيّارة، التي تقف أمامه، وتمدَّدت واختلطت بالكتلة المائعة التي تنتشر وتسيل على زجاج السيّارة. واستحكم الاختناق ومَنَعَ حركة السير. زحفت الأضواء الحمراء وملأت كامل الفضاء الممتدّ أمام البصر، وبدأ يهبط من مكان ما من الأعلى ضباب أبيض كالثلج ويُغَشّي السيّارات، وامتزج هذا الضباب بالأضواء الحمراء، وسال المزيج الذي يشبه عصير الفريز مع القشطة على زجاج السيارة. ارتفع صوت ما. صوتٌ مزعج جدّاً. وأخذ يقترب ويشتد إلى أن أصبح لا يطاق ثمّ غدا بسرعة فائقة عالياً إلى درجة غير معقولة. قرّر

فاديك أن يتلفّت حواليه ليعرف مِنْ أين يأتي هذا الصوت. ولا يدري لِمَ خُيّل إليه أنَّ الصوت يأتي من مكان ما في الخلف، ولكنّه ما إن بدأ يتلفّت... حتى استيقظ.

ارتعد جسمه كلُّه، وعاد بلحظة إلى الحياة، وشاهد أمامه الطريق فارغاً، وأدرك أنَّ الصوت هو زعيق أبواق السيّارات التي كان يسدّ عليها الطريق. أدرك فاديك كلَّ هذا بأقلّ من ثانية، وأقلع بسيارته إلى الأمام.

كان يتوق بشدّة إلى النوم! لا .. لم يكن الأمر هكذا! ليس مجرّد توق فحسب. كان هذا هو الاحتياج الوحيد والهاجس الذي لاينفكّ يلحّ عليه ويمتلك إحساسه. هذا ما كان يحسّ به على الدوام منذ وقت طويل.

في الأسبوع الماضي غفا وهو جالس على كرسيّ طبيب الأسنان وأطبقت أسنانه بِعَضّةٍ خفيفة على يد الطبيب، وهي بدورها جرحت لثّته ولسانه بالجهاز الدوّار الذي تمسك به. ومنذ بضعة أيام فقط أُتيح له أن يذهب ليحلق شعره في الوقت المخصّص للغداء. وقد غفا في أثناء الحلاقة وسقط بوجهه إلى الأمام، وارتطمت قصبة أنفه بحافة طاولة الحلّاق ارتطاماً مؤلماً خَلَّف على أنفه سحجة خفيفة.

ولكنَّ الأسوأ من هذا كلّه ما كان يحدث له في العمل، ولاسيّما بين الساعة العاشرة والثانية عشرة. كان فاديك يغفو وهو ينظر في الأوراق الموضوعة على الطاولة فيتدلَّى رأسه ويرتفع باستمرار، وكان يَصْدِم برأسه شاشة الحاسوب، ويَسقُط من يده قلمُ الحبر أو قلم الرصاص.... وكان يرتعد بشدة ويستيقظ عندما يرنّ جرس هاتفه.

لكنّ فاديك كان يحب عمله، بل كان مشغوفاً به، إلّا أنَّه لم يكن يتحدّث عنه عمليّاً لأحد، ليس من باب الحفاظ على السرّية، بل لأنّه كان ما إن يشرع في الحديث عنه لأحد ما، حتى يندمج في الحديث ويغوص في التفاصيل، مّما يجعل المستمع يضجر بسرعة، ويحاول تحويل اهتمام فاديك إلى موضوع آخر، أو يقول إنّه مضطر إلى إجراء اتصال هاتفيّ عاجل. وإذا ما أصغى أحدهم مع ذلك من قبيل المجاملة وإبداء الاحترام فإنّه سرعان ما يبدأ بالتثاؤب والانشغال بأمور جانبيّة.

كان فاديك يعمل في مكتب وزاريّ مهمّ، يعالج مسائل المواصفات القياسيّة. وقد أمضى في ممارسة هذا العمل سبع سنوات من أعوام عمره الثلاثين. وعلى العموم لم يكن أحد من خارج دائرة زملائه يعرف بالضبط ما هي حقيقة العمل الذي يقوم به. وكان يقول لمعارفه العرضيّين من الشبان والشابات، إذا ما أبدوا اهتماماً بنوعيّة عمله، إنَّه يعمل في الوزارة في مجال العلاقات الاقتصاديّة الدوليّة. وإذا ما حاول أحدهم التدقيق في الأمر يوهمه فاديك أنّ هذا شأن سريّ، أو يتملّص من السؤال بالمزاح.

أضاءَ المؤشر الضوئيّ الذي يدل على وجود البنزين في خزان السيّارة ثمَّ انطفأ، ثمَّ ما لبث أن أضاء ولم ينطفئ بعد ذلك، واتخذ فاديك من هذا الأمر موقفاً فلسفّياً. كان يتوقّع هذا، بل إنَّه تعجّب من أنَّ المؤشر لم يضئ قبل ذلك. فحساباته تقول إنَّ البنزين كان يجب أن ينفد منذ أمس، وكان يستغرب بعض الشيء استمرار السيّارة في السير عموماً حتى الآن. فمنذ وقت طويل كان ينبغي تغيير الزيت وأشياء

أخرى كثيرة فيها، ولم يكن يُعزّيه سوى أمر واحد هو أنّه لم يبدّل إطارات السيّارة في الخريف بإطارات شتوّية، إذ لم يتيسّر له ذلك بسبب ضيق الوقت، مع أنَّ الإطارات الشتويّة كانت موجودة لديه. وباختصار، ظلّت السيّارة تسير شتاءً بإطاراتها الصيفيّة، ما سيعفيه عند قدوم الربيع من تغيير الإطارات ثانية، وكان هذا يشعره بالراحة والطمأنينة.

وما أكثر الأشياء التي كان عليه أن ينجزها! شتّى الشؤون الصغيرة. وكلّ شأن صغير يتطلّب ولو بعض الوقت. فمتى يمكنه النوم إذاً؟ وإلى ذلك كان فاديك غالباً يسافر من مكان إلى آخر داخل البلاد من حيث الأساس لتنفيذ مهمّات رسميّة، ويطوف في أثناء ذلك على شتّى المدن الصناعية الكبيرة والمتوسّطة. بيد أنه كان أحياناً يوفَدُ إلى الخارج أيضاً، ولكن باتجاه الشرق فقط، وقد أوفد مرّات عدّة إلى الصين، ومرّتين إلى كوريا، وأوفد مرة حتى إلى اليابان. ولم يفهم فاديك بوضوح أيَّ شيء في الشرق، ولكنَّ الأمر أعجبه، وكان يرغب في الذهاب إلى أوروبا.

وهو لم يزر أوروبا سوى مرَّة واحدة منذ ثلاث سنوات، ولم تكن تلك زيارة عمل، بل لقضاء عطلة العيد في مدينة براغ، وقد ذهب إلى هناك مع إحدى معارفه، التي كانت تربطه بها آنذاك علاقة حبّ، ومع أنّه قضى أيام العطلة الأربعة في مشادّات عنيفة مع فتاته، إلّا أنَّ الحياة في براغ أعجبته كثيراً. لقد أعجبته أوروبا تلك التي يمكن للمرء أن يتعرَّفَها ويحسّ بها في براغ.

كان فاديك قد تأخّر عن الدوام، علماً أنّه في صباح اليوم التالي يجب أن يسافر إلى باريس. للمرة الأولى في حياته سيذهب إلى باريس، وذلك لقضاء شؤون تتعلّق بالمواصفات القياسيّة، أَيْ في مهمة، ولكن ليوم واحد فقط، سيصل ويشرح للزملاء الفرنسيين أموراً شديدة الخصوصيّة، ثمَّ يقفل راجعاً في اليوم التالي. بيد أنَّ قضاء أمسية في باريس يَعِدُ بِمتعٍ رائعة، وفاديك كان ينتظر هذه المهمة بابتهاج.

طوال الأسابيع الأخيرة التي كان ينتظر فيها موعد السفر كان يحرص في أثناء أيِّ حديث مع الأصدقاء، ولا سيما الفتيات على أن يُحِّول الحديث بطريقة ما ليقول إنَّه قريباً سيذهب إلى باريس في مهمّة، وهاهو موعد السفر غداً، وهو قد أُنهك تماماً من الانتظار.

والأهم أنّه كان طوال الوقت يحاول أن يخرج من نطاق المشاغل الصغيرة، والتعب، وضيق الوقت... وأيضاً من نطاق قلة النوم، ولم يكن يفلح في هذا. كان لاينفكّ يحدّد لنفسه مواعيد ما ينبغي أن تسير حياته بعدها على نحو طبيعي ومنتظم، ولايفتأ يضع خططاً تقضي بأن ينهي في يوم كذا العمل الفلانيَّ وفق المهمَّة المكلَّف بها وينتهي الأمر، وهكذا دواليك، وبعدئذٍ سيحل الهدوء والحياة اليوميّة العاديّة بأمسياتها الطويلة وأوقات فراغها من المهام ومن المشاغل الصغيرة، وسيكون ثمَّة أيام عطل ونزهات وذهاب إلى السينما، بل حتى ربما ممارسة رياضة ما. أما المغريات جميعاً مثل: المخالطة وتعاطي الكحول والنساء وسوى ذلك من الهواجس المقلقة، فَتُنَحّى جانباً ولو إلى حين.

وكان يشعر أنّه سيقدر على ذلك، وسيحقّق ما يريد. وقد طفق يفكر بمناسبة سفرة باريس بالذات بأنَّه قبل باريس ستكون لديه مشاغل وهموم كثيرة، ولكنَّه سينجز كلَّ شيء، ويتدارك جميع النواقص، ويستخلص مجمل النتائج، ويسافر إلى باريس صافي الذمة من كلّ هذا. وبعد باريس ستبدأ في حياته مرحلة مختلفة... هي بالضبط .. مرحلة الانتظام.

ولكن لسبب ما جرى العكس في الشهر الأخير؛ وتكاثف كلّ شيء، تكاثف إلى حدٍّ يفوق التصوّر، ولم يكن بإمكان فاديك أن يتهم أحداً بذلك سوى نفسه. فلماذا ذهب بالأمس إلى النادي لحضور حفلة موسيقية؟ لقد كان يرغب بشدّة في أن يستغلّ أمسية البارحة لترتيب شؤونه الشخصيّة والحياتيّة. كان يريد أن يذهب بعد العمل مباشرة إلى السوق ليشتري كلَّ ما يلزمه، بما في ذلك مناديل تواليت لستة أشهر قادمة، ويشتري شفرات حلاقة جديدة. وكان يحلم في أن يذهب بعد ذلك إلى المنزل، ويرتب شقته ولو كيفما كان، ويخلد إلى النوم باكراً، وينام بالقدر الكافي؛ فما الذي جرى فعلاً؟

قبل أن يغادر المكتب عند انتهاء الدوام نشب جدال بينه وبين رومان، وهو زميله وجاره في العمل. كان فاديك ينظر إلى رومان على أنه شخص مُمِلّ ومتزمت، ولم يكن، كما يبدو، يلقي بالاً على الإطلاق إلى الآراء التي يبديها رومان هذا. ولكنه فجأة أخذ يجادل، وتوترت أعصابه، واستشاط غضباً. وكان ما أثاره هو أن روما(*) راح يعلن أشياء ما، ويتنبأ بحدوث أمور ما، بلهجة هادئة وقطعية لا تقبل المعارضة، وعارضه فاديك لمجرد المعارضة، ومن ثم ابتدأ الأخذ والرد. وتابع الاثنان الجدال

(*) روما: تصغير اسم رومان. المترجم.

وهما خارجان من المكتب، ثم استمرا طويلاً في المهاترات بعد ذلك عند مدخل المبنى الذي يعملان فيه، وفي النهاية جلسا في المقهى القريب من المبنى، ودخّنا واستمرا في الجدال، ولم يطل جلوسهما طويلاً ولكنه استمر إلى أن خارت قواهما. وفي أثناء الحديث برزت لديهما رغبة شديدة في الشرب، ولكنهما امتنعا عن ذلك لأن فاديك عليه أن يقود السيارة، وباختصار فشلت خطته المسبقة التي كانت تقضي بالذهاب إلى السوق، والعودة المبكرة إلى البيت، واختلّ توازنه النفسي، وضاع الوقت.

ما إن جلس فاديك خلف المقود، وشرع يفكر في المكان الذي يمكن أن يعرّج عليه ليشتري أي شيء، ولو شفرات حلاقة على الأقلّ حتى اتصلت به كاتيا، وهي لم تتصل به منذ مدة طويلة، قالت له إنها لا تجد من يرافقها اليوم في الذهاب إلى حفلة موسيقية في النادي، فأخذ فاديك يتمنع، ولكن بلهجة غير حاسمة، ثم سأل أخيراً:

- وما هي هذه الحفلة؟

- حفلة جيدة، إنها فرقة... نسيت اسمها، ستطلق ألبوماً جديداً ...

ثم تابعت كاتيا تقول بتمهل: أنت لا بد تعرفهم، لديهم أغنية متميزة حول موضوع... كيف الصيف يغادر وأنت أيضاً تغادر .. من المؤكد أنك سمعتها .. إنها تذاع الآن من جميع محطات الراديو. أغنية جميلة جداً ... وحاولت كاتيا أن تدندن لحنها.

- قال فاديك: لا .. كاتِنْكا، لا أعرف هذه الأغنية، وربما لن أستطيع أن أرافقك إلى الحفلة، فقد عزمت اليوم على القيام ببعض الأمور، ثم إنني متعب بعض الشيء.

قالت كاتيا ببطء: أية أمور هذه التي تريد القيام بها؟! ستستمتع، وستعجبك الحفلة.

شعر فاديك في نهاية المطاف أنه يرغب في لقاء كاتيا، هذه الصبية التي تتصرف بتمهل وبشيء من التصنع، وهو لم يرها منذ وقت طويل، ولكن عندما كانا يلتقيان ... كان فاديك يستمتع فعلاً باللقاء. وببساطة وبما أن كاتيا هي التي اتصلت به فهذا يعني أن لديها رغبة ..

- طيب. ومتى الحفلة؟ إذا لم تكن في وقت متأخر فسأحاول ألّا أدعك اليوم من دون رفيق.

ردت قائلة: لا ... ليست في وقت متأخر في التاسعة والنصف... أي قريباً.

- وأين؟

شرحت له كاتيا كل شيء، واقترحت عليه أن يلتقيا هناك في الحال، ويتناولا وجبة خفيفة، وينتظرا الحفلة في المكان نفسه. وافق فاديك، وفكر للحظة: هل يعرّج على البيت، ويترك السيارة هناك كي لا يضطر إلى أن يقودها بعد تناوله الكحول، إذ من المؤكد أنه سيرغب في الشرب، ولكنه سرعان ما قرر أن يذهب إلى النادي بالسيارة قاصداً من ذلك الامتناع عن الشرب والسيطرة على الموقف. ذهب إلى النادي، وجلس في البار، وطفق يكبو وهو يحتسي القهوة ويدخن. تأخرت كاتيا، ولم تصل إلّا في اللحظة التي قرر فيها فاديك أن يغادر مغتاظاً بعد أن تعكّر مزاجه. كان النادي عندئذ قد غصّ بالروّاد.

وعلى العموم جاءت كاتيا وقد بدا عليها الحزن لسبب ما، وما إن شرعا يتحادثان حتى أخذ هاتفها الجوال يرن، وراح يرن تارة بعد أخرى، وكانت في كل مرة تبتعد قليلاً، وتتحدث طويلاً، ثم تعود أكثر حزناً، وبعد ذلك شربت وأخذت تشكو من أن صديقها الجديد أضناها تماماً، وهو يتصل بها باستمرار، ويسبب لها العذاب.

تأخرت الحفلة، وفهم فاديك أن كاتيا قصدت اللقاء معه انتقاماً من صديقها، أو لكي تشتكي فحسب. أدرك ذلك ولكنه لم يغضب، بل الأرجح أنه سُرَّ لشعوره بوضوح أنه لن يجد لديه القوة الكافية للاستمرار في اللقاء. وأخيراً لم يستطع الصمود، وشرب مع كاتيا، ثم شرب المزيد.

بدأت الحفلة في الحادية عشرة. وكان فاديك آنئذ قد ثَمِلَ؛ أما كاتيا فكانت قد بكت قليلاً، ثم ذهبت إلى دورة المياه، ومكثت هناك طويلاً. كما صادف فاديك بعض الأشخاص الذين يعرفهم معرفة سطحية لا تُلْزِمه بضرورة البقاء معهم. وكان مسروراً بهذا.

الحفلة الموسيقية كانت صاخبة. رقص فاديك ثم راح يبحث عن كاتيا، ووجدها واقفة عند منصة البار وقد ثملت تماماً. وهنا عادت إلى فاديك الرغبة في الاستمرار، بيد أن كاتيا كانت في حالة لا تسمح لها البتة بالتفكير في أي شكل من أشكال الاستمرار، فأوصلها فاديك إلى منزلها، ثم توجه إلى منزله. سار ببطء وأناة لأنه كان ثملاً، وكانت أضواء المدينة تسيح أمام ناظريه على شكل أشعة طويلة، وكل المنعطفات تبدو طويلة، وتسبب الدوار، وبالإضافة إلى كل هذا بدأ الثلج يهطل، ذاك الثلج السمج نفسه.

لم يُتَح له أن ينام سوى ثلاث ساعات ونصف، وها هو الآن في طريقه إلى العمل. راح يشتم نفسه لتخاذله البارحة، ولغياب الحزم وقوة الإرادة لديه. كانت الرغبة في النوم لديه لا تقاوم إلى درجة أنه كان مستعداً لأن يوقف السيارة في أي مكان على طرف الشارع ويغفو خلف المقود مباشرة، بل كان مستعداً لِأَنْ ينام واقفاً في الركن المخصص للتدخين في مكان العمل، أو أن يتكوّر وينام تحت طاولة المكتب. المهم النوم .. أينما كان، وكيفما كان.

عادت حركة السير في الشارع من جديد. وأدار فاديك زر المذياع باحثاً عن موجة أخرى، ووقع على محطة تبث موسيقا سريعة الإيقاع، فرفع الصوت إلى الحد الأقصى. الموسيقا كانت رديئة، ولكن فاديك لم يكن يهتم بهذا، بل كان همه أن يطرد النعاس، مع إدراكه أنه إذا دوّت الآن بقربه قذائف المدافع، وصفارات جميع السفن والقطارات، وإذا علت أصوات جميع الجيران في العالم وهم يعربدون أو يقيمون أعراساً تضج بأصوات الأغاني والرقصات الجماعية، فإن كل هذا لن يمنعه من النوم.

طفق فاديك يشتم نفسه للأسلوب الذي تصرف به طوال الشهر الماضي، وليس لهذا فقط بل أيضاً لأن لديه هذا العدد الكبير من الأصدقاء والمعارف، وكل واحد منهم لديه عيد ميلاد، وأعياد ميلاد أولاده، ولأنهم يتزوجون ويقيمون الأعراس، ويحتفلون بمناسبات ذكرى هذه الأعراس، ولأن لديه هو فاديك نفسه عيد ميلاد. ومع أن عيد الميلاد لا يأتي سوى مرة واحدة في السنة، ولكن كم كان يتألم عندما

يتذكره! ثم إن جميع أصدقائه ومعارفه كانوا ينتقلون باستمرار من شقة إلى شقة، وكان من الضروري مساعدتهم في أثناء الانتقال أو مشاركتهم في الاحتفال بانتقالهم إلى منزل جديد.

وفي يومي عطلة الأسبوع الماضي بالذات ساعد أصدقاء له في الانتقال إلى شقة جديدة. وقضوا طوال يوم السبت في نقل الأثاث والكتب والبراد وأشياء أخرى، ثم أخذوا في منتصف الليل يشربون في الشقة الجديدة وسط الأثاث المبعثر والعلب المكدسة، وطفلين توأمين في السابعة هائجين لا يهدأان، ولا ينفكان يتراكضان ويصخبان، ولم تعد لأحد من قوة أو إمكانية لأخذهما إلى سريريهما.

أي لم تُتح له فرصة النوم في ليل السبت، وقد اتصل به أولئك الأصدقاء أنفسهم صباح الأحد، وأيقظوه ليساعدهم في إكمال نقل بعض المتاع، ثم في ترتيب الأثاث، ولو بشكل أوّلي. وبعد ذلك احتفلوا بالانتقال إلى المسكن الجديد....

ومنذ أسبوعين أيضاً لم يتح له أن ينام في يومي العطلة. كان فاديك يشتم نفسه لهذا بالذات أكثر مما كان يشتمها لكل ما تبقّى. يتذكر كيف كان ينتظر بلهفة تلك العطلة، وكيف كان يحلم بأن يذهب يوم الجمعة بعد الدوام إلى السوق ويشتري الكثير الكثير من الأشياء كي لا يضطر إلى الخروج من المنزل في يوم السبت ولا في يوم الأحد. كان يحلم بأن ينام ملء جفنيه من مساء الجمعة إلى صباح السبت، ويبقى طوال نهار السبت في البيت، ولا يتصل به أحد بالهاتف، ويقضي النهار بطوله في مشاهدة التلفاز أو في مطالعة كتاب ما. كما كان

يرغب في أن ينام يوم الأحد أطول مدة ممكنة، وربما سيذهب بعد ذلك إلى السينما أو ...

وفي النتيجة، دعوه يوم الجمعة إلى العشاء في مطعم. كانت المجموعة تتألف من أشخاص جيدين ورصينين، فلم يجد من اللائق رفض الدعوة، وذهب معهم. قرروا بعد العشاء أن يذهبوا إلى مكان يشربون فيه قليلاً، وذهبوا. وبعد ذلك اتصل به بعض الأصدقاء الذين كانوا يلهون في نادٍ قريب، ودعوه للانضمام إليهم. رفض فاديك الدعوة في البداية، ثم وافق على الانضمام إليهم لـ«دقيقة». وهناك شارك في الرقص؛ ثم تعرف إلى يوليا التي تزور العاصمة للمرة الأولى. وكان بصحبتها صديقتاها اللتان أتت إلى العاصمة لزيارتها. وراحت الصديقتان تغمزان يوليا تارة وفاديك تارة أخرى غمزات تآمرية، ثم ذهبتا بعد ذلك إلى مكان ما.

وباختصار، لم يُتح لصاحبنا أن ينام من الجمعة إلى السبت، وقضى نهار السبت مع يوليا. أخذها بسيارته إلى السوق، ثم إلى السينما، وقد غفا طوال وقت العرض، وحتى لمسات يوليا وإمرار كفها على فخذه لم تُجْدِ نفعاً، ثم دعاها مع صديقتيها لاحتساء القهوة في الكافيتيريا، وبعد ذلك تركنه وحيداً، فأسرع بالذهاب إلى البيت، ولكن المساء قد حلّ، ولم يُتح له أن يتوصل إلى حالة التوازن النفسي. والأدهى من ذلك أن يوليا ما لبثت أن اتصلت به وقالت إنها تشعر بالملل مع صديقتيها وتريد أن تذهب وإياه وحدهما إلى أي مكان. أخبرها أنَّه لا يستطيع، وأنه منهك، ويشعر بتوعك، وأنه الآن في البيت ولا ينوي الخروج

إلى أي مكـان. وبالإضـافة إلى كـل ذلـك ادّعـى أن نقـوده قـد نفـدت، وليس لديه ما يكفي حتى لشراء آيس كريم. فردت عليه يوليا الفتاة الجنوبية العاطفية بأنها ستأتي إليه حالاً لتعتني به، وقد أتت بالفعل فوراً على الرغم من كل ما قاله لها فاديك من عبارات، مثل: لا داعي أبداً، ليس هناك ما يدعو للقلق، ولِمَ كل هذا؟! وسأشعر بالحرج إذا أنا حرمتك من لحظات السرور، ....إلخ.

وعلى العموم، من جديد لم يُتح له النوم، ولم يُتح له التنعم بالاسترخاء في السرير صباح الأحد.

أما في الأيام العادية فإنه لم يستطع بحال من الأحوال أن يتخلص من الأعمال التي لم يكملها، ومن اللقاءات التي لم يُنْهها، ومن بعض المغريات والشؤون الصغيرة المقلقة. صَدَفَ أن عاد مرات عدة إلى البيت في وقت غير متأخر، ولكنَّ توتر أعصابه لم يكن يسمح له بأن يغفو، وكان يعاني، ويتصل بشخص ما، ويدخن، ويشاهد التلفاز من دون أن يدرك ما يراه على الشاشة، ومرة أخرى لا يُتاح له أن ينام بما فيه الكفاية، وتراه يسير منهكاً، محنيَّ الظهر.

توقفت الموسيقا الصاخبة اللعينة، وتمنَّتْ المذيعةُ لجميع المستمعين صباحاً خيِّراً. كانت تتكلم بصوت ينم عن الشعور بالنشاط. أضافت بعض العبارات الحماسية السخيفة، ثم قدّمت للمستمعين أغنية رديئة لا تطاق بالمرة. أطفأ فاديك المذياع، ومرّ الصباح والنهار على نحو سيّئ جداً، ليس بعده سوء.

وصل فاديك إلى العمل متأخراً إلى حد لا يمكن التغاضي عنه، وتعرَّض بسببه للتأنيب، والأنكى أن هذا قد حدث على مرأى من عاملين آخرين أصغر منه عمراً وأخفض مرتبةً، وقد أزعجه هذا أيما إزعاج، ولم يستطع أن يركز تفكيره، وظل كذلك حتى موعد الغداء، وحاول في أثناء الغداء أن يتذمر من تصرف الإدارة وينتقدها أمام زملائه، ولكن هؤلاء لم يؤيدوه طبعاً، فهو الذي سيطير غداً إلى باريس، وليس هم.

بعد الغداء، قام ببعض الأعمال كيفما كان، وأعدّ تقريراً ما، ووضع خطة مستقبلية، ثم أخذ النعاس يغلبه، وقبيل الساعة الخامسة أصبح يخيل إليه أن الهواء ليس هواءً، بل هو أشبه بِهُلام لزج ليس شفافاً جداً، وعليه، أي على فاديك، أن يخترق هذه المادة الهلامية ويمر عبرها. وفي الساعة السادسة عقدوا اجتماعاً وبّخوه فيه من جديد، وأبدوا استياءهم منه، وراحوا يبسطون أيديهم بامتعاض تعبيراً عن الاستهجان. قال الرئيس:

- نعم... يا فاديم سيرغييفتش، لقد ائتمنّاك للدفاع عن شرف شركتنا، بل عن شرف دولتنا ككل! وأنا ائتمنتك على هذا، ولكنني الآن أشك في صوابية قراري. وغداً سأكون في غاية القلق، وكلنا هنا سنكون قلقين جداً. هل تعرف لماذا؟ لأنك أنت بالذات هو من سيمثلنا في باريس. ومما يدعو للأسف أن هذا لا يمكن تغييره الآن. ثم أردف الرئيس قائلاً وهو يتأوه بأسف عميق:

- ولم يعد باليد حيلة ...

خرج فاديك من الاجتماع ممتقعاً مكفهر الوجه، وتحوّلت فرحته بسفرة باريس المنتظرة إلى غضب، وشعور بالإهانة، وارتعاش عصبي، وبالمقابل هجره الشعور بالنعاس وكأنه لم يكن. جلس إلى طاولة عمله وهو يكزّ بشدة على أسنانه، حتى خيّل إليه أنها تصرّ وتصدر صريراً. كان يشعر بالإهانة حتى البكاء، وقد طفرت الدموع من عينيه وسالت على وجنتيه.

ظل فاديك جالساً هكذا إلى أن غادر جميع الزملاء أماكن عملهم، وعندئذ شمّر عن ساعديه كما يقولون وانكبّ على العمل. مَحَّصَ مرة تلو مرة ما كان عليه أن يقدّمه غداً في باريس. عمل بضراوة وفاعليّة بالغة، اختصر ودقق وصحح أشياء كثيرة. أغلق هاتفه وانصرف إلى العمل في جو يسوده الهدوء.

أنهى كل شيء نحو الساعة الحادية عشرة. وبعدئذٍ فقط أرخى كتفيه اللتين أصيبتا بالخدر، وتمطّى جالساً بجسده المتخشب كله، وتنهد بصوت مبحوح ولكنه ينم عن الراحة. وكان الشعور بالإهانة والغيظ والظلم قد تراجع على نحو ما وهمد وسكن. ولم يبق في نفسه سوى شعور بالأسى والوحدة. وحدة وأسى فظيعان. وحدة مطلقة لا نهائية.

عاد إلى البيت بعد منتصف الليل؛ وفي الطريق ملأ خزان السيارة بالوقود، واشترى من متجر صغير يعمل على مدار الساعة شفرات حلاقة جديدة ليست من النوع الذي اعتاده، بل من النوع الموجود. وفي البيت راح يتنقل ببطء من المطبخ إلى الغرفة وبالعكس. لم تكن لديه أية قوة على

الإطلاق لفعل أي شيء، ولكن ليس بمقدوره أن يخلُد إلى النوم. أولاً - لأن عليه أن يستعد للسفر، وثانياً - لأنه شعر بأنه لن يغفو. لن يغفو لأن أعصابه في منتهى التوتر، ولأنه يخشى أن تتشبث بذهنه فكرة سخيفة ما تبدأ بتعذيبه وتدور في رأسه فتجعله يدور معها بكامل جسمه متقلباً من جنب إلى جنب في حالة مضنية من الوجود بين النوم واليقظة.

وضع فاديك إبريق الشاي على النار، وأخذ يُعِدّ حقيبة السفر ببطء وامتعاض. وضع فيها قميصه المفضل، ومعطفه الرمادي القصير المفضل، وحذاءه المفضل. كان يعرف أن الطقس في باريس سيكون دافئاً. ولكنه مضطر عند الذهاب إلى المطار إلى ارتداءِ سترته الدافئة التي سئمها خلال فصل الشتاء الطويل.

الطقس الآن في باريس في عز الربيع .. حديقة توليري، وضفاف السين، وحي مونمارتر، والشانزيليزيه، ومونبارناس ....

احتسى فاديك الشاي مميلاً رأسه إلى جانب. كان ما يزال يشعر بوحدة خانقة، ويشعر أيضاً بالحسرة لأن قلبه لم يعد يخفق ولم يعد يشعر بالابتهاج عندما يتصور اللذة القادمة، وقد اختفت في مكان ما رغبته العارمة في استنشاق هواء باريس.

كان يضع في محفظته مع النقود ورقة تحتوي أسماء وعناوين بعض المطاعم الباريسية التي عليه أن يذهب إليها حتماً لتناول العشاء، كي يتذوق طعم باريس في أمسيته الباريسية الوحيدة تلك، وقد كتبت له هذه الأسماء والعناوين فتاة من معارفه تزور باريس كثيراً، وهي خبيرة بأنواع المطاعم.

وأول أمس كان فاديك قد أعاد باستمتاع قراءة ما هو مكتوب في هذه الورقة، وراح يخمّن اسم المطعم الذي سيذهب إليه، والأطباق التي سيأكلها، وكيف سيجري كل هذا ... ولكن الآن لم يعد هذا الأمر يثير اهتمامه. لقد تعب، وبلغت قلة النوم لديه حداً جعله يتخيل أنه بعد وقت قصير سيعتاد العيش بلا نوم. الحياة من دون نوم ستكون فظيعة؛ أي أفظع مما هي عليه الآن، ومما كانت عليه في السابق.

وكيف كانت الحياة في السابق؟ طوال حياته السابقة كان لديه شعور بأنهم حرموه النوم. حرموه إياه منذ مدة طويلة جداً، ولم يكن هذا الحرمان مقصوداً، بل ببساطة لأن العالم الإنساني، والنظام، بل حتى الدولة نفسها مبنية كلها على هذا النحو.

فهو لا يتذكر نفسه إلّا وهم يوقظونه، يحركونه، يهزونه، يجرّونه جرّاً لإخراجه من نومه اللذيذ. هكذا كان يحدث في صغره عندما كانوا ينتزعونه من سريره الدافئ وهو بين النوم واليقظة، ويغسلون له يديه ووجهه، ويلبسونه ثيابه، ويقودونه إلى روضة الأطفال، ثم جاءت بعد ذلك سنوات المدرسة الطويلة جداً بصباحاتها الملأى بالعذاب، وبعدها جاءت مرحلة الجامعة التي أصبح النوم فيها أقل من السابق، ثم جاء الحب الأول الجارف الذي انتفى معه النوم نهائياً تقريباً. وبعد ذلك جاء العمل الذي شَغَفَه حقاً، ثم جاء الحب الذي فاق سابقه قوةً، ... وبعد ذلك ... ولكنه صباحاً يجب أن يسافر إلى باريس.

نظر فاديك إلى الساعة: إنها تقترب من الثانية ليلاً. فكّر للحظة، وفتش بعينيه عن دليل الهاتف، وعثر عليه، واتصل وطلب سيارة أجرة

تأخذه من البيت إلى المطار الساعة السادسة والنصف .. فالطائرة تقلع في التاسعة والربع. وضبط المنبه ليرنَّ في السادسة.

كان فاديك يكره صوت منبهه أشد الكره، إنه منبه كبير يعمل ميكانيكياً، وهو من النوع القديم، ورنينه عالٍ إلى درجة مخيفة، ومقلق على نحو هستيري. كان رنينه يخترق النوم كشيء ما يشبه الكابوس الخانق، فيشتت الأحلام ويطردها، ويسبب العذاب له، ثم يقتلعه من وهدة النوم إلى الحياة. وكان فاديك يقضي نصف نهاره بعد هذا الرنين بمزاج سيّئ وشرس. بيد أنه كان يستعمل هذا المنبه بالذات، لأنه ببساطة لم يكن ليسمع رنين أي منبه آخر. أما هذا المنبه فقد كان فاديك يكرهه، ولذا كان رنينه يوقظه.

وبعد الاستيقاظ كان يعيش حياته على نحو خاص. لقد اعتاد أن يفعل كل شيء «على الماشي». واقتنع بأنه «على الماشي» يستطيع أن يأكل، وأن يشرب، وأن يقرأ، بل إنه يستطيع أن يتعلم أيضاً «على الماشي». ويمكنه «على الماشي» كذلك أن يشتري بسرعة ملابسه وأحذيته، وأن يعمل «على الماشي» في أثناء «قيامه بأعمال أخرى». ومن الممكن التقاء الآخرين «على الماشي»، بل حتى يمكن مناقشة مسائل جدّ مهمة وتوضيحها «على الماشي». «وعلى الماشي» يمكن أن يفكر ويتخذ قرارات جوهرية، بل حتى ذات أهمية حاسمة؛ كما أدرك أنه «على الماشي» بإمكانه حتى ممارسة الجنس، أي العملية الجنسية الطبيعية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. ولكن الشيء الوحيد الذي لا يمكنه أن يقوم

به«على الماشي» هو النوم بالقدر الكافي. من الممكن الإغفاء الخفيف، والتهويم، والكرى القصير، ولكن لا يمكن النوم العميق بالقدر الكافي. فالنوم بالقدر الكافي يحتاج إلى شروط، بدءاً بنوعية الوسادة وانتهاءً بالتوازن النفسي الكامل.

علا رنين المنبه ومزّق نوم فاديك القصيرَ... العميقَ... الأسود... الخالي من الأحلام. يجب السفر إلى باريس . وها هو يُهوِّم في التاكسي بِشَعْر لم يجف بعد، ووجه يلتهب من أثر الحلاقة، ورأسه يرتطم بين لحظة وأخرى بزجاج السيارة البارد. وخلف الزجاج كان ثمة مطر ووحول وسيارات متسخة وطقس شبه ربيعي. ولم تكن لديه أية مشاعر إزاء منظر العاصمة الممطرة الموحلة، ولا إزاء اقتراب موعد رؤيته لباريس.

التقى في المطار زملاءه من العاملين في الأقسام الأخرى، والذين سيسافرون في الطائرة نفسها. ولكن لم تكن لديه قوة للاختلاط بهم. جرى تسجيل البطاقات ببطء، وجرت مراقبة الجوازات ببطء أشد. وحاول فاديك أن ينفرد عن زملائه ويبقى وحده. وبعد احتساء القهوة وتدخين سيجارة الصباح الأولى أصبح إحساسه بالعالم من حَوْلِه أقوى بعض الشيء. كان يرغم نفسه إرغاماً وهو يشرب القهوة على فهم ما سيحدث قريباً، ويطالب ذاته بأن يشعر بالفرح، وبأن يعي أنه الآن يطير إلى باريس، وكان هو أول من دخل إلى الطائرة تقريباً. أخرج من حقيبته المعطف الخفيف، ودسَّ فيها سترته السميكة. وضع الحقيبة على الرف، والمعطف إلى جانبها، وجلس قرب النافذة.

امتلأت الطائرة سريعاً بالمسافرين. وجلس زملاؤه في الخلف. وجلس إلى جانبه رجل كهل غطّى الشيب رأسه كله، يرتدي كنزة فاتحة وبنطالاً مخملياً بني اللون. وقبل أن يجلس أومأ برأسه لفاديك باحترام وابتسم. كان شيبه شديد البياض، ووجهه شديد السمرة، ما جعل فاديك يفكر: «جاري، على الأرجح، فرنسي؛ هذا ممتاز! لن تكون هناك حاجة إلى الحديث معه في أثناء الطيران». وتأكيداً لهذه الأفكار تناول الرجل الأشيب جريدة فرنسية وفتحها.

وفيما كانت الطائرة تمتلئ تماماً بالركاب، وفيما هي تدور لتقف عند مضمار الإقلاع كان فاديك قد غفا، ولم ينتبه إلّا عندما زأرت الطائرة أخيراً وراحت تزيد من سرعتها.

- انطلقنا.

قال فاديك لنفسه بصوت خافت عندما ارتفعت الطائرة عن الأرض.

- نعم .. انطلقنا.

قال جاره مبتهجاً بلفظ لا لكنة فيه، ثم أردف مبتسماً:

- أتعرف .. أنا أيضاً أقول هكذا دائماً عندما نقلع.

فقال فاديك: صحيح؟ أنا قلت هذا للمرة الأولى في حياتي.

سأله الجار: ألمدة طويلة في باريس؟ أم ستتابع الطيران إلى مكان آخر عبر باريس؟

- لا، بل إلى باريس، .. وليوم واحد فقط. غداً سأعود.

- مفهوم. أيْ بمهمة.

أجاب فاديك بذبول: بالضبط.

فسأله الجار مبتسماً: أتسافر كثيراً بالطائرة؟

أجابه فاديك من دون أن ينظر إليه:

- إلى أين؟ إلى باريس؟ هذه هي المرة الأولى، أما على العموم فكثيراً ما أسافر بالطائرة.

وعاد الجار يسأل: المرة الأولى؟ وليوم واحد فقط؟ هذا مؤسف! ثم إنها زيارة عمل. باريس لا يمكن أن تعرفها خلال يوم واحد.

ردّ فاديك: وأنا لن أحاول. فزيارتي هذه للعمل. وربما في مرة أخرى سأعرفها.

قال فاديك هذا بلهجة تجعل من الواضح أنه لا ينوي متابعة الحديث إذ لم تكن لديه قوة للكلام مع أنه لاحظ أن جاره شخص لطيف، بل جذاب، ولو كان قد صادفه في ظروف أخرى لكان هو البادئ بالحديث وعن طيب خاطر.

ظل فاديك صامتاً بعض الوقت، ثم غفا، ولم يستيقظ إلّا عندما هزه من كتفه شخص ما برفق. فتح عينيه، وشاهد أمامه على منضدة المقعد الصغيرة طعام الفطور الذي يوزعونه في الطائرة، وكان الذي أيقظه هو جاره الأشيب. قال له:

- ينبغي أن تتناول فطورك حتماً، وإلّا فإنك ستنام وأنت تسير.

ثم أردف قائلاً وهو يلقي في الكأس البلاستيكية الملأى بالماء حبة كبيرة ما لبثت أن فارت:

- ويجب أن تشرب هذه حتماً. لا تخف، إنها تحتوي على فيتامين س. ستنشطك، وهي على العموم مفيدة.

قال فاديك: شكراً، ولكن ...

فقاطعه جاره بهدوء: اشربها وكفى، ليس فيها أي شيء خاص، بل هي ستنشطك قليلاً؛ وبعدها تناول فطورك مباشرة.

شرب فاديك فيتامين س الفوّار، ثم راح يمضغ على مضض فطور الطائرة، ولكنه مالبث أن شعر بالتحسن. وأحضرت المضيفة بعد ذلك قهوة خفيفة، ولكن مع ذلك تفوح منها رائحة القهوة.

قال الجار بعد أن أنهى فطوره:

- إيه .. نعم! للمرة الأولى في باريس. إنني أغبطك. أَتَذَكَّر كيف كانت زيارتي الأولى لباريس. أتيت إليها بالقطار عبر برلين. كان الطقس في برلين رائعاً، بينما كان الضباب يملأ أجواء باريس، وكان الطقس بارداً وشديد الرطوبة. وأذكر أن هذا لم يعجبني البتة. أما الآن فالطقس في باريس جيد جداً. لقد اتصلت أمس هاتفياً، وقالوا لي إن درجة الحرارة زائد ١٥، والشمس ساطعة.

قال فاديك لمجرد أن يقول شيئاً ما: هذا جيد.

فقال محدثه بسرور موافقاً: هذا رائع! ثم إن باريس الآن تظهر بمظهرٍ لا يمكن أن تراه إلّا في بداية الربيع. وهذا الأمر يلاحظه الزائر بوضوح شديد عندما يكون قادماً من موسكو بالذات.

وفكّر الجار لبضع ثوان ثم أردف قائلاً:

- فقط في بداية الربيع يمكنك أن ترى باريس هكذا. وهذا غير ممكن في أي وقت آخر من أوقات السنة.

فسأله فاديك من باب الاحترام مرة أخرى: ما هو غير الممكن؟

- من غير الممكن أن ترى باريس رؤية شاملة كما تراها الآن. فقط في الربيع يمكن هذا أولاً: الطقس الآن دافئ ويمكنك أن تستمتع بالنزهة والتجوال فيها، والجو ليس حاراً، ثم إن الضوء الآن لطيف للغاية! فالشمس الربيعية تليق بباريس جداً. بباريس بالذات. وثانياً: أوراق الشجر لم تظهر بعد، أي أن الأشجار لن تحجب عنك رؤية فن العمارة، لذا فإنك الآن فقط تستطيع أن ترى بشكل جيد وكامل واجهات الأبنية والشوارع. وربما قلت لنفسك إن الأشجار تخلو من الأوراق في الشتاء أيضاً. ولكن التنزه آنذاك ليس ممتعاً كما الآن، والفرجة أيضاً ليست ممتعة. والأهم أن الضوء لن يكون كما هو الآن. وثالثاً: الروائح، فأية أنسام تسري الآن في أجواء باريس؟

عندما اقتربت الطائرة من باريس كانت الساعة حسب التوقيت المحلي تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. وكانت باريس تُرى بوضوح تام.

قرّب فاديك وجهه من النافذة ... وراح يبحث بعينيه ... ورأى على الفور تقريباً ما كان يبحث عنه ... إنه برج إيفل. بالتأكيد هي باريس! فكّر فاديك وهو يبتسم.

استقبلهم شخص يحمل بيده لائحة تعريف، وكانت أجواء بناء المطار كلها ملأى بموسيقا اللغة الفرنسية المرتفعة وغير المفهومة، ولكن العذبة جداً. وانطلقت بهم الحافلة الصغيرة في طريق تضج بالحركة. وأبلغهم الشخص الفرنسي الذي استقبلهم أنهم لن يذهبوا إلى الفندق مباشرة، بل سيذهبون قبل ذلك إلى المكان الذي سيجري فيه اللقاء والمحادثات، وقال إن في المدينة الآن اختناقات مرورية، ولذا فهم سيتجاوزونها ويدورون حول باريس، ولن يذهبوا إلى وسط المدينة، بل إلى مركز رجال الأعمال الذي لا يشبه باريس الحقيقية، بل هو أقرب في الشبه إلى أمريكا، وأشار إلى أن باريس«العملية» هذه لا تعجبه.

كان هذا الفرنسي شخصاً ظريفاً يناهز الخامسة والثلاثين من العمر، ويتكلم الروسية بطلاقة. يرتدي سترة سميكة مجعدة ويضع على عنقه وشاحاً طويلاً مخططاً معقوداً بلا عناية، ولكنه مع ذلك يبدو أنيقاً. فكّر فاديك في أنه بحاجة إلى مثل هذه السترة وهذا الوشاح.

بدأت المحادثات عند الساعة الواحدة بالضبط، واستمرت حتى الخامسة تقريباً مع بعض فترات الاستراحة المخصصة لاحتساء القهوة وتناول بعض المقبلات. وقد ألقى فاديك كلمته في بداية اللقاء، وكان قد أعدّها بعناية بالغة، ولم يوجهوا له سوى سؤالين فقط. أجاب عنهما

بسرعة وإحكام. وقضى بقية الوقت في الإصغاء إلى الآخرين، ولكنه كان في أثناء ذلك يشرد ذهنياً عن الموضوع ولا يفقه ما يقال، إذ إنه بدأ يغفو، ولم يسعفه تناول القهوة، فراح ينظر إلى النافذة التي تطل على المدينة المضاءة بشمس الربيع، تلك المدينة التي تندر مثيلاتها في هذا العالم، أو بتعبير أدق، مدينة باريس الفريدة بين مدن الأرض. كان فاديك يعرف هذا ويحاول أن يرى ويحس في ما يراه خلف النافذة باريس بالذات، التي طالما حلم بزيارتها.

وقبيل انتهاء اللقاء راح فاديك ينظر إلى ساعته بين لحظة وأخرى، ويأسف على كل دقيقة، إذ كان قد رسم خطةً تقضي بالذهاب في البداية إلى الفندق والاغتسال تحت الدوش، ثم ارتداء قميصه ومعطفه المفضلين، وانتعال حذائه الأثير، والذهاب مباشرة ..... إلى أين؟! إلى أين في البداية؟ فاديك لم يكن يعرف إلى أين. على الأرجح سيذهب إلى برج إيفل، وهناك سيقرر. وعلى كلٍّ، الوقت لديه قصير جداً.

استغرق وداع زملائهم الفرنسيين وقتاً طويلاً إلى حد لا يحتمل. ولكنهم أخيراً توادعوا.

في المصعد سأله غينادي بوريسوفتش، وهو رئيس القسم الذي كان فاديك قد بدأ عمله فيه يوماً ما، وهو الآن المشرف على تنفيذ مهمة الوفد:

- فاديك، هل ستذهب معنا؟

فسأله فاديك بدوره:

- وأنتم إلى أين ستذهبون؟

أجاب غينادي بوريسوفتش:

- الآن سنذهب إلى الفندق، وبعد ذلك إلى المطعم. الفرنسيون وجهوا لنا دعوة، تعال معنا.

ردَّ فاديك: لا... اعذروني، أريد أن أتجول، سأعرّج على الفندق، ثم سأذهب للتجول.

فقال غينادي بوريسوفيتش وهو يهز رأسه:

- نعم، لقد نسيت، أنت للمرة الأولى في باريس، طبعاً، اذهب وتنزّه، فأنت تستحق هذا بجدارة لقاء عملك اليوم. لقد تحدثت بشكل ممتاز .. بهدوء وحرفية. أحسنت يا فاديك... أنا اتصلت بالرئيس وقلت له إن كل شيء قد جرى بشكل رائع، وإنك كنت ممتازاً.

فقال فاديك مرتبكاً: شكراً جزيلاً.

عند حلول المساء، عند الساعة السادسة إلّا ربعاً، وصلوا إلى الفندق. قال غينادي بوريسوفتش وهو متوجه إلى غرفته بعد أن تسلَّم المفتاح:

- طيب، لا بأس، تصرّف حسب خطتك الخاصة، سنلتقي صباحاً على الفطور؛ لا تنس أننا سننطلق من هنا إلى المطار في العاشرة صباحاً.

أجابه فاديك وهو يتسلم مفتاحه:

- أذكر هذا، شكراً.

أردف غينادي بوريسوفتش وهو يغمز بعينه:

- كن حذراً هنا، فباريس ليست المكان الأكثر أمناً في العالم. أتمنى لك التوفيق.

صعد فاديك إلى غرفته في الفندق. الغرفة صغيرة ولكنها مريحة جداً. كل شيء فيها مريح وصغير، وليس فيها كبير سوى السرير والنافذة. اقترب فاديك من النافذة واكتشف خلفها شرفة جد صغيرة محاطة بسياج جميل، وما إن خرج إليها حتى طرقت سمعه ضجة في الشارع، في الأسفل.

قال فاديك بصوت مسموع: إنها باريس، هيا استمتعْ.

ثم جلس على طرف السرير الشديد الطراوة، ومرّ بِكفّه على الوسادة. لم يسبق له قط أن نام على مثل هذه الملاءات. ولكن عليه الآن أن يسرع ...

قضى فاديك وقتاً طويلاً جداً في معالجة صنبور رشَّاش الماء ليضبطه على الدرجة المناسبة، وفشل مرات عديدة في محاولاته المتأنية للوصول إلى درجة الحرارة المقبولة، فالماء البارد يتحول دفعة واحدة إلى ماء حار جداً، ويعود فاديك ليدير الصنبور بما لا يزيد عن مِلّيمتر واحد فيعود الماء جليدياً، ثم استطاع في نهاية المطاف أن يعثر على الوضع الزئبقي الدقيق للصنبور ويستحم، وبعد ذلك نظف أسنانه وحلق ذقنه بشفرة جديدة، وقد قرر حلاقة ذقنه كي يشعر بأنه في أقصى درجات الانتعاش، ولكن هذه الحلاقة أي عملية الحلاقة بحد ذاتها، أثارت لديه الأحاسيس الصباحية المعتادة، وجعلته يتذكر ويشعر بوطأة احتياجه الشديد إلى النوم.

ارتدى ملابسه على عجل، لبس جوربيه الجديدين وقميصه الجديد المفضل، وبنطاله القديم بعض الشيء، ثم جلس على السرير وانحنى فوق جهاز الهاتف الموضوع على كومودينة بجانب السرير، ووجد الزر المطلوب فاتصل بقسم الاستقبال. ردّ عليه صوت نسائي، فأخذ فاديك يتكلم بالإنكليزية، ولكن الموظفة لم تفهم ما يريد، وسرعان ما سمع في الهاتف صوت رجل يتكلم بإنكليزية مكسرة ولكنها مفهومة تماماً. سأله الرجل:

- ماذا تريد؟

فأجابه فاديك: أريد سيارة أجرة.

- ومتى المسيو يريد السيارة؟

- الآن حالاً.

- نحن سنطلب لك التاكسي، ولكن أخاف أنك ستضطر للانتظار قليلاً؛ فاستئجار تاكسي في مثل هذه الساعة في باريس صعب جداً.

- وكم يجب أن أنتظر؟

- لا أستطيع أن أحدد مسيو. ففي باريس ....

فكّر فاديك للحظات وأدرك أن الانتظار أفضل من أن يستوعب بسرعة نظام التجول في باريس معتمداً على ذاته، فقال لموظف الفندق:

- طيب، سأنتظر.

وأتاه الرد: شكراً مسيو

واختفى الصوت.

استلقى فاديك على السرير، ومدّ قدميه فوق الغطاء. الوسائد صغيرة، ولكن عددها ثلاث. جَمَعَها ودسّها تحت رأسه، فشعر براحة بالغة، أغمض عينيه وأحس بالراحة أيضاً من الضوء غير الباهر المنبعث من المصباح الكهربائي الأرضي. كان السرير مريحاً جداً وواسعاً جداً .... وتناهى إلى سمعه من خلف النافذة ضجيج الشارع. حاول فاديك أن يتذكر وهو مضطجع كيف يقولون بالفرنسية: «برج إيفل».

عندما استيقظ فاديك وجد نفسه غارقاً في عتمة وهدوء تامين، فانتفض بكامل جسمه وشعر بأنه يستلقي في السرير من دون ملابس، وأنه يتغطى بالبطّانية. جلس وأخذ يتلمس بيده الجدار المجاور للسرير إلى أن استطاع أن يشعل المصباح الجداري. نظر في ساعته الموضوعة على الكومودينة فرأى أنها تشير إلى الرابعة وعشر دقائق ... صباحاً طبعاً. وتذكّر على الفور أنه لم يحوّل الساعة إلى التوقيت المحلي، أي أن الساعة الآن في باريس هي الثانية وعشر دقائق بعد منتصف الليل.

ذهب إلى الحمَّام وأفرغ مثانته، وتذكّر وهو أمام المرحاض أنهم قالوا له شيئاً ما عن سيارة الأجرة، وأنه ردّ عليهم بجواب ما. ولكنه لم يستطع أن يتذكّر ما الذي أجابهم به بالضبط، ولم يستطع البتة أن يتذكّر كيف خلع ملابسه، وكيف سوّى السرير، وكيف أطفأ النور. نظر فاديك إلى نفسه في مرآة الحمَّام.

- إيـ ...ـه يا أخ! قال لصورته المنعكسة على صفحة المرآة وهو يهز رأسه، وغمز لها بعينه اليسرى.

أطفأ النور وركض على رؤوس أصابعه حتى السرير، وقفز إليه قفزاً بالمعنى الحرفي للكلمة، واندسَّ تحت البطّانية. أطفأ المصباح الجداري، وتجمّع على نفسه، وبدأ يشعر بالدفء. كان الجو في الحمَّام وفي الغرفة بارداً بعض الشيء. وراح فاديك يفكر في الظلمة وهو متكوِّر في السرير أن بمقدوره أن ينام خمس ساعات أخرى بالتمام والكمال. وهو قد نام حتى الآن بما فيه الكفاية، ويمكنه أن ينام أيضاً خمس ساعات! تقلّب حتى وجد الوضع المناسب، ومالبث أن غاص بِيُسْرٍ في لجّة النوم.

استيقظ عندما علت ضجة الشارع خلف النافذة. هو لم يستيقظ إلّا لأنه لم يعد يستطيع النوم أكثر من ذلك. لقد وَخِمَ من النوم. تولّد عنده شعور بأنه أكل النوم أكلاً بشرائح كبيرة. والآن قد شبع تماماً. بعد الاستيقاظ ظل ممدَّداً بعض الوقت، ثم نظر إلى الساعة. كانت الساعة تشير بالتوقيت المحلي إلى السابعة وخمس وأربعين دقيقة. تابع الاستلقاء خمس دقائق أخرى، ثم وثب من السرير بنشاط، وأزاح الستارة فبهرت بصره السماء الساطعة وأشعة شمس الصباح. أشعل فاديك التلفاز وبحث عن قناة موسيقية وعلّى الصوت، وفيما كان يغسل يديه ووجهه ويرتدي ملابسه كان يدندن باستمرار مردداً جميع الأغاني التي يبثها التلفاز.

الفطور كان لذيذاً جداً... أرغفة محمصة، وكروسانات طرية، وزبدة رائعة وجبنة ومربيات مختلفة، وبيض برشت ساخن مسلوق إلى الدرجة المثالية. أما القهوة فثمة فيض منها. أكل فاديك وأكل وأكل، وشعر أنه يثمل من الأكل. وكانت المائدة التي يجلس إليها قرب النافذة، وخلف زجاج النافذة كان الفرنسيون يسيرون في الشارع، أناس لِطاف وظرفاء.

سمع فاديك من يقول له: صباح الخير يا فاديك.

فالتفت ورأى خلفه غينادي بوريسوفتش، وأردف هذا سائلاً: كيف الأحوال؟

أجاب فاديك بصوت عالٍ: ببساطة إنها رائعة.

قال غينادي بوريسوفتش بصوت حزين: أما نحن فأحوالنا جميعاً ليست تماماً على ما يرام. لا ينبغي الشرب كثيراً هكذا حتى من النبيذ الفرنسي .. ولا ينبغي أن يحضر الشخص معه فودكا إلى فرنسا. أما شرب الفودكا في غرفة الفندق فهذا ببساطة انحطاط، ولكننا جميعاً فعلنا هذا. أوه، فاديك، أنت أحسنتَ جداً بأنك لم تذهب معنا البارحة! إيه، كيف كانت جولتك أمس؟ وما رأيك بباريس؟

أجاب فاديك مبتسماً:

- روعة! ليس لديّ كلمة أخرى أقولها. ببساطة، روعة!

- صحيح تماماً. إنني مسرور من أجلك. أكمل فطورك. نحن نجلس في البهو وندخن. لا تستعجل للحاق بنا، أخشى أن نبدأ الآن باحتساء الكونياك.

قال غينادي بوريسوفتش هذا وسار محدودب الظهر، مبتعداً عن فاديك ببطء.

في الساعة التاسعة والنصف كان فاديك يقف في الشارع أمام مدخل الفندق، ينظر إلى الشمس بعينين شبه مغمضتين

ويدخن بتلذذ. وكانت حقيبته المرتّبة والمغلقة موضوعة على الأرض في البهو، بجانب الطاولة التي يجلس إليها زملاؤه المتجهمون، يحتسون الكونياك بتجهم.

شاهد فاديك على الجانب الآخر من الشارع الضيق بعض الشيء متجراً يعرض في واجهته تمثالاً بلاستيكياً لرجلٍ يرتدي معطفاً، ويعتمر قبعة، ويغطي عنقه بوشاح يكاد يماثل وشاح الشخص الفرنسي الذي استقبلهم في المطار.

أنهى فاديك تدخين لفافته بثلاثة أنفاس، ونظر إلى ساعته، ثم اجتاز الشارع بوقار، ودخل إلى المتجر. شمل ما حوله بنظرة سريعة، ونادى البائع، فإذا به لا يتكلم الإنكليزية، فأشار فاديك ببساطة إلى الوشاح الذي في الواجهة، وفهم البائع على الفور كل شيء، فابتهج بشدة على نحو لا يتناسب مع الموقف، وركض إلى مكان ما، ومالبث أن عاد بعد دقيقة وفي يده وشاح مماثل تماماً.

رجع فاديك إلى الفندق بعد أن وضع الوشاح على عنقه. وما إن رآه غينادي بوريسوفتش حتى قال له متعجباً:

- ما هذا يا فاديك! أنت مدهش. لقد وجدتَ الوقت الكافي أيضاً لتشتري ملابس جديدة. إنه معطف رائع، وكذلك الوشاح، والحذاء. تبدو باريسياً أصيلاً.

أجابه فاديك وقد بدت عليه السعادة:

- لا .. الوشاح فقط؛ أما الباقي كله فقد اشتريته في موسكو.

- حقاً؟! لم أنتبه لهذا، ولكن الوشاح ممتاز...

بعد قليل، وصلت السيارة المخصصة لهم مع مرافقهم الفرنسي نفسه. وقال هذا لفاديك بعد أن سلّم على الجميع:

- يا له من وشاح جميل، من أين اشتريته؟

فأجاب فاديك ضاحكاً: من باريس، وهل ثمة مكان آخر أشتريه منه؟

استقبلت موسكو فاديك بشمس مسائية جميلة، وبغيوم كثيفة، أضاءتها هذه الشمس على نحو مدهش، وبنسيم ربيعي دافئ.

أوصل غينادي بوريسوفتش فاديك إلى منزله تقريباً. هبط المساء، وسطعت أضواء المدينة بقوة، وكان الهواء هنا شفافاً ومنعشاً، والأرضُ مبتلةً وتصدر تحت القدمين صوتاً كالنشيج، ولكنه نشيج محبب على نحو ما.

كان فاديك يشعر بالغبطة وهو سائر في الشارع باتجاه منزله، وتذكر وهو يسير أن عليه أن يفتح هاتفه الجوّال. أخذ يفكر بعد أن فتحه بمن يمكن الآن أن يتصل؟ وفيما هو يفكر رنَّ الهاتف، وكان المتصل هو رومان، جاره في العمل.

- مرحباً.

- أهلاً.

- هل عدت؟

- نعم.

- كيف كان الطيران؟

- جيد جداً، كل شيء تمَّ بنجاح.

ثمَّ سأل رومان بشيء من الأسى:

- وهل أعجبتك باريس؟

أجابه فاديك: أنا منبهر .. أو بعبارة أدق، لستُ منبهراً، إنما هي ببساطة أعجبتني جداً .. دعني أَقُلْ لك أنا هناك لم أرَ ولم أشعر بأي شيء متميز؛ بل كانت الأمور هكذا، كل شيء كان هادئاً، وكأنك لست في باريس، بل في بلدك. لقد أدركت ببساطة أن باريس هي مدينتي. هكذا بالضبط أدركت مباشرة، دعني أقل لك إنني أستطيع أن أعيش هناك.

أجاب رومان: - هكذا؟! شيء غريب. فأنا لم تعجبني باريس كثيراً.

فقال له فاديك بلهجة ودية: معنى ذلك أن الحظ لم يحالفك، وربما في المرة القادمة ستعجبك. ولكن ما سبب اتصالك بي؟

- هناك أمر ما. فاديك .. هل يمكنك غداً ....

الخاتمة

بعد شهر وَقَعَ فاديك في شِباك حب آسر، وبعد أكثر من عام بقليل تزوج، وبعد حفل الزفاف سافر في الصيف مع زوجته إلى باريس لمدة أسبوع كامل.

دفن الملاك

لم تكن المباراة حاسمةً بل ليست حتى مهمة، ومع ذلك احتشد الجميع لمشاهدتها، وذهب أندريه أيضاً مع من ذهب. ولم لا؟ كان يوم سبت، ولم يكن الطقس على ما يرام، حيث بدأت الأمطار الباردة بالهطول منذ منتصف أيلول، ولم يكن أحد يرغب في الذهاب إلى دارته الصيفية. كان قد افتتحَ بالقرب من هنا مقهىً - نادٍ جديد، وأطلقوا عليه اسماً مختصراً هو«آوت». كان بوريا(*) قد اتصل بأفرادِ المجموعةِ كلِّها قبل موعد المباراة وقال: إنه تفحّص الشاشة الموضوعة في«أوت» وتحقَّقَ من أنها جيّدة... وسيكون من الممتع مشاهدة المباراة هناك، وبشكل عام يُعدّ المكان ممتازاً، ولهذا حجز طاولة لأفراد المجموعة جميعهم وسط الصالة ومقابل الشاشة تماماً. وعلى الرغم من أن المباراة ستكون مملة بعض الشيء كما تقول التوقعات، ذهب أندريه إلى /آوت /.إذ لم يكن ثمة ما يشغله، ثم إن المكان ليس بعيداً.

لم يكن أندريه شغوفاً بكرة القدم، ولكن الشرب والتشجيع والصياح مع المجموعة الصاخبة كان ممتعاً في بعض الأحيان، وخاصة

(*) بوريا: تصغير اسم بوريس . المترجم

خلال تصفيات كأس العالم، أو بشكل عام عندما تكون المباراة ذات أهمية كبرى. لم يكن أندريه يشاهد المباريات كلَّها، ولم يكن متابعاً لقائمة ترتيب الدوري، كما هو الأمر عند بوريا وبقية أفراد المجموعة. ولكنه كان يلبّي الدعوات أحياناً لحضور المباريات، وينضم إلى صفوف محبي الكرة الصاخبين، ويشجع بحماس لا يقل عن حماس الآخرين. لم تكن المجموعة تذهب إلى الملعب لمشاهدة المباراة على الطبيعة، أو بتعبير أدق، كان بعض أفرادها يذهب أحياناً إلى الملعب، ولكنهم، على الأغلب الأعم كانوا يشجعون من خلال التلفاز. وكانوا من قبل يجتمعون وفق جدول معقد بالتناوب في البيوت، بيد أن هذا كان يترافق دائماً مع إخلاء الأطفال والنساء أو عزلهم. ومع ذلك فإن الصراخ بملء الصوت في البيوت كان أمراً غير جائز. ولهذا ما إن ظهرت الأماكن التي وُضِعَتْ فيها الشاشات، حتى أرسى بوريا قاعدة تقضي بمشاهدة مباريات كرة القدم في أحد هذه الأماكن. وكان يُدبِّر كل شيء بنفسه، ويُبلِّغ جميع أفراد المجموعة، ويحجز الطاولات. أما أندريه فقد كان يحضر ويشجع عندما تكون لديه الإمكانية والمزاج المناسبان.

في هذه المرة كان كل شيء رائعاً، فالمباراة جاءت جيدة جداً، بمعنى أنه حصل الكثير من الأشياء، فقد سُجِّلت أهداف كثيرة واحتُسِبتْ ضربة جزاء. كانت معرفة أندريه بالفريقين قليلة، ولم يكن في الفريقين لاعبون مشهورون أو محببون. في حين أن المجموعة التي كانت تجلس إلى الطاولة كانت منتقاة جيداً، ومهيأة للمرح، وقد تحقق ذلك، إذ كانت تصدر عنهم صيحات متتالية كثيرة وكثيرة. وفاز الفريق الذي

كانوا يشجعونه. وخلف الطاولات الأخرى كان من يشجعون بشكل رئيسي الفريق الآخر. ومع نهاية الشوط الأول كانت النتيجة ٢:٢، وعدد الزجاجات التي شربها المشجعون في أثناء ذلك لا يمكن إحصاؤه. فقد تزاحمت على الطاولة كؤوس البيرة، ودورق الفودكا، وتكدست أكوام الكعك الأسود المالح، والأطباق الممتلئة بالشطائر المحشوة بالسمك. وكان دخان السجائر يتصاعد ويتكاثف تحت السقف وفي الزوايا. حقاً كان كل شيء جيداً وممتعاً.

خرج أندريه خلال فترة الاستراحة بين الشوطين إلى الشارع، واستنشق الهواء الخريفي الرطب، ولاحظ أن المطر قد توقف، وهذا يعني بالنسبة إليه أن بإمكانه العودةَ إلى البيت مشياً على القدمين. أصبح أندريه ثملاً للغاية، وكان يشعر بأنه يستطيع شرب المزيد. تنفس بعمق مرةً أخرى، وتمطّى بكل جذعه الممتلئ المرن ذي الأربعين عاماً، وتنحنح زافراً بارتياح، وعاد إلى المجموعة.

سأل بوريا وهو يسجل التوقعات ومبالغ المراهنات: بِكَمْ ستراهنون على نتيجة الشوط الثاني؟

قال أندريه: النتيجة النهائية ٤ - ٢

صرخ بوريا بصوته الذي بُحّ وهو يسجِّل النتيجة المتوقعة من قبل أندريه: هكذا إذاً، يا صاحبي، يالك من جريء!

حتى آخر دقيقة كانت النتيجة ٢:٣، وفي الوقت الإضافي أُعلِنَ عن ضربة جزاء، وحصل ما توقّعه أندريه، فصاح الجميع، وتعانقوا،

على خلاف الجالسين إلى الطاولات المجاورة، حيث بدؤوا يشتمون بكلمات بذيئة، ولكن بمرح ثم تقدموا وهنؤوا مجموعة أندريه بروح رياضية. جمع بوريا النقود من الجميع وأعطاها جائزةً لأندريه، والذي بدوره ضيَّف الزملاء احتفالاً بالفوز. بعد ذلك جلسوا صامتين لفترة قصيرة، ثم بدؤوا يخرجون واحداً واحداً. خاتمة رائعة!

عندما خرج أندريه إلى الشارع زَفَرَ بصوت عالٍ، ولم يَزُرَّ جاكيته، وشعر بأنه ثمل للغاية، توقف لمدة خمس ثوان ثم تابع سيره إلى البيت. ابتسم، أخذ يترنم بنغمة لا أصل لها، ويمكن لأي كان أن يرددها.

كان واضحاً من خلال ضوء المصابيح أن الريح قد نَشَّفَتْ الإسفلت بعد المطر، وكانت قد توضَّعت بعض برك الماء في أماكن مختلفة، وبفعل الرطوبة كانت تشققات الإسفلت تبدو بوضوح. كان أندريه يمشي متجنباً الدوس على هذه الشقوق، إذ إنه لسبب ما تذكر مقولة من أيام الطفولة: (من يَدُسْ على الشقوق، يعني، أنه لا يحب الوطن)(*). ثم قال لنفسه وهو يضحك: أي كلام فارغ هذا!

مَرَّ بجانب كشك مُضاء فتوقف وراح ينظر إلى القوارير وعلب العصائر المختلفة في الواجهة، وأراد أن يشتري شيئاً منها، أي شيء، المهم أن يشتري، وقرَّر أخيراً أن يشتري زجاجتين من البيرة، كي يشربهما بكل متعة في البيت.

(*) (العبارة في الأصل مُسَجَّعة، كأن نقول: «مَنْ يَدُس على الشقوق يتّصف تجاه الوطن بالعقوق»). المترجم

ولكن فجأة أحسَّ أندريه بالانزعاج حينما تذكَّرَ أنه عندما يصل إلى البيت، عليه اصطحاب كلبه غراف للتنزه، وبالطبع لولاه لم يكن أحد ليذهب للتنزه مع غراف هذا؛ وهو كلب ينتمي إلى سلالة الكلاب «الإرديلتيريــة»، ولكنـه لا يتسم بأصالة خالصة؛ فالزوجة تاتيانا لا تصطحبه للنزهة في المساء على الإطلاق، إذ إن هذا كان من واجباتها الصباحية. أما فاريا، الابنة الكبرى، فليس لديها رغبة في التنزه مع غراف، وكانت تقوم بهذا الواجب شكلياً ولفترة قصيرة. وكان الكلب بدوره قد امتنع عن الذهاب معها أيضاً. أما الابنة الصغيرة ماشا فلم تكن قد تجاوزت الخامسة من عمرها، وعلى الرغم من أنها وغراف أحبَّا بعضهما، ولكن عن أي تنزّه في هذا العمر يمكن أن نتكلم...؟! قال ذلك ثم تنهّد وغمغم بصوت خافت: بسبب فاريا اشترينا الكلب بعد نَقٍّ وتذمّر طويلين، وبعد أن عقدنا مجلساً عائلياً تشاورياً واتخذنا فيه قراراً بشراء الجرو من جيراننا وقد وعدت وأقسمت بأنها ستتنزه معه. آه يا للعجب، اشتريناه منذ سبع سنوات وكان عمر فاريا ثماني سنوات لكنها سرعان ما امتنعت عن التنزه معه بعد أن أصبحت رؤيته في الفناء أمراً معتاداً ولم يعد يثير الاهتمام لدى أصدقائها.

تململ أندريه عندما تخيل أنه يجب عليه قضاء وقت التنزه وفق المسار المحبب لغراف، وأن يراه كيف يتشمم كل الأشياء التي يمر بها، وكيف يرفع قدمه ليقوم بفعل أكثر جدية. ثم تذكَّر أن التنزه لا موجب له، لأن غراف مريض لليوم الرابع، وفي اليومين الأخيرين لم يخرج من البيت، فتنفس الصعداء وبعدها شتم نفسه على هذه السعادة التخاذلية

اللاإرادية. ولكن إذا توخينا الصراحة علينا القول إنَّ أندريه لم يكن يحب التنزه مع غراف، وبشكل خاص كان ذلك يحرمه من مشاهدة نشرة الأخبار الإجمالية مساء يوم الأحد في أواسط كانون الثاني.

أما غراف المسكين فقد أُصيبَ بالزكام. ففي يوم الأحد الماضي ذهبوا إلى النهر للتنزه. غراف بالطبع كان يسبح عند الضفة ولم يخرج من الماء، وقبل العودة إلى البيت كان عليهم أن يغسلوه بماء النهر البارد. وفي طريقهم إلى البيت، وكعادته دائماً أخرج غراف رأسه من نافذة السيارة، وكان حينها الجو بارداً، وكان الكلب مبللاً وشعره أشعث، وهم لم ينتفوا شعره منذ مدة طويلة (هذا النوع من الكلاب بالتحديد لا يُحلق شعره بل يُنتف).

بدأ الكلب يعطس ويسعل. وبحلول مساء يوم الثلاثاء أصبح لا يُقْبل على الطعام، وقد جَفَّ أنفه الأسود الرطب، اللامع، الكبير، وغدا أشهب اللون. ويوم الخميس أخذت أعراض المرض تظهر على كامل جسده، فتنفش صوفه وتدلى على جسده، وأمضى وقته منبطحاً على (طراحته) والحزن بادٍ عليه من خلال إطراق رأسه، إذ لم يكن يستطيع رفعه إلّا عند الاقتراب منه. أما ذيله القصير، الذي كان في الحالة الطبيعية مرفوعاً إلى الأعلى ويهتز بسرعة، فقد أصبح مرتخياً، ويتحرك بشكل بطيء من جهة إلى أخرى للتعبير عن السعادة التي لم يتبق من القوة ما يظهرها. وكان يصدر صوتاً مزعجاً عند تنفسه، ويسعل سعالاً حاداً، ورفض الخروج إلى الشارع مساء يوم الخميس.

قَلِقَ أندريه، بالطبع، واعتقد بدايةً أن الأمر بسيط وسيمرُّ هكذا، فقد أمضى يوم الخميس مهرولاً في المدينة من كثرة أعماله، إذ حصل معه الكثير من الأمور الجدية وغير المتوقعة، فالتأمين على حياة الناس وعلى ممتلكاتهم عَمَلٌ جلّه هموم وضغط أعصاب، وهذا ما جعله يهمل غراف. كما كان لديه أيضاً الكثير من الأعمال في يوم الجمعة، وكانت قد اتصلت به زوجته تاتيانا وقت الغداء وقالت له: إنّ فتانا (هكذا كانت تدعو غراف)، في وضع سيِّئ جداً.

اتصل أندريه بالطبيب البيطري، ووصف له حالة غراف، فسمعه الطبيب ولم يقل له أي شيء يطمئنه، لكنه وعد أن يأتي لمعاينته يوم الأحد، ولسبب ما اعتذر عن المجيء يوم السبت.

سافر أندريه يوم السبت إلى بعض زبائنه، وكان قد اتصل من هنالك بالبيت، قالت له تاتيانا: إن حالة غراف أفضل، حتى إنه لعق مرق الدجاج.

أنجز أندريه أعمالاً أخرى، وبعدها خطف نفسه إلى البيت لتغيير ملابسه، هنا خرج غراف بحركة بطيئة لملاقاته وحاول الوقوف على قائمتيه الخلفيتين، بيد أن أندريه لم يعره اهتماماً لأنه كان في عجلة من أمره إذ كان يريد الذهاب إلى«آوت» لمشاهدة تلك المباراة.

ها هو يردد الآن: لا موجب للتنزه مع الكلب في هذا اليوم. فرح، ثم شتم نفسه على هذا الفرح، ولكنه تذكَّرَ أيضاً، في هذه اللحظة، أن الطبيب سيأتي لمعاينة غراف غداً. اشترى أندريه زجاجتين من البيرة

وذهب إلى البيت. كان يهرول في آخر حارتين، لأنه كان قد فتح زجاجة بيرة عند الكشك وشربها في الطريق على عجل وبكل سرور، فأراد التبوّل بعد ذلك بأسرع ما يمكن. وبسبب شعوره الشديد بالحاجة إلى التبول، بدأ يزعق ويرقص ثم جلس القرفصاء داخل المصعد، وعندما وصل فيه المصعد إلى الطابق حيث توجد شقته، قفز نحو باب شقته، ورنّ الجرس، وتابع يطرق على الباب من دون توقف، لأنه لو حاول فتح الباب بنفسه بالمفتاح، لكان قد عَمِلَهَا على نفسه. وأخيراً عندما فتحت ابنته فاريا الباب، ركض إلى المرحاض من دون أن يخلع حذاءه.

آ -آ -آ -آهـ...! يا سلام! الحمد لله! وتنفس الصعداء بعد شعوره بالراحة. وبعد خروجه إلى الردهة قال لزوجته عندما شاهد أمارات التوتر على وجهها: تانيا.. لا داعي للتسبب في خصام، أنا قلت لك سلفاً إنني سأشرب، فهل هناك مشكلة في هذا؟ ولذلك لا موجب لهذه النظرات إليَّ بهذا الشكل.

وقد تعجّب بالفعل، إذ إن زوجته لم تشتمه قط ولم تكن توجه له أية ملاحظة بسبب حالات الشرب المعلن والمسموح به.

قالت فاريا ببرودٍ وكأنها تكشف عن فضيحة: إن غراف قد مات.

ثم استدارت بحركة تنمُّ عن التحدي وذهبت.

تجمد أندريه هنيهةً من الوقت، رمشَ مرتين ونظر إلى زوجته، فلاحظ أن وجهها قد تورم من البكاء، وما زالت الدموع تترقرق في عينيها، فسألها:

كيف مات، ومتى؟

لم تجب!

وسألها أيضاً: أين هو؟

أشارت تاتيانا بيدها إلى جهة غرفة الضيوف، أو كما يقولون عادة الصالون.

قالت وهي تغصُّ: وضعتُ ماشا عند الجيران، لا أدري ماذا أفعل، لم أستطع الاقتراب منه... غَطَّيته بشرشف... وهنا انفجرت باكية، وهي تقول: أندروشا(*)... مات فتانا! هكذا مات بهدوء!

تحوَّل السكر المبهج على الفور إلى ترنُّح في المشي وارتخاء في الشفتين، خلع أندريه حذاءه ووضع بجانبه على الأرض زجاجة البيرة التي كانت بادية من جيب سترته، ثم اتجه إلى الغرفة التي أشارت إليها زوجته.

كان على الأرض، بين الأريكة والتلفاز، شرشف قديم جداً، وقد كان يستعمل كشرشفٍ منذ خمسةَ عشرَ عاماً، ثم تحوَّل لاحقاً للاستعمال كمفرش للجلوس عليه في الرحلات والنزهات وعلى ضفّة النهر المحلي، وهاهو الآن يتحول إلى كفن لجثة كلبه.

اقترب منه وجلس القرفصاء، ودخلت وراءه تاتيانا وهي تبكي، ثم قالت بسرعة: أكل في النهار، ولَعِبَ ثم استلقى ونام. كانت فاريا

(*) أندروشا: تصغير لاسم أندريه . المترجم

في غرفتها، وبينما كنتُ أقرأ في غرفة نوم ماشا، سمعتُ فجأة... فخرجتُ من الغرفة، وإذ به مستلقٍ هنا على جنبه وقد تمددت قوائمه، وبدأ يشخر ويشخر، ثم زحفَ إليَّ يا أندروشا، وأصدر زفيراً صاخباً جداً، وأخيراً نفق!!!.

وانْتَحَبَتْ؛ وقف أندريه وضمَّها. لم تستطع تاتيانا التغلب على النحيب لبعض الوقت، وقالت: لم أعرف ما كان يجب عليَّ القيام به، فقد وضعتُ ماشا عند الجيران فهي لم تره بعد، ولم تعرف حتى الآن ما حصل. أما هو فمستلقٍ هنا... أنا غير قادرة..! أندروشا، أَخْرِجْهُ، من فضلك، أَخْرِجْهُ! لن أغفر لنفسي! نحن بأنفسنا موَّتنا هذا الفتى، نحن موَّتناه.

ثم ابتعدتْ، ودخلتْ إلى الحمَّام وفتحت الماء.

قرفص أندريه من جديد، رفع الشرشف ووضعه جانباً، فبدا له غراف صغيراً. وهو بالأساس لم يكن ضخماً جداً وكان أصغر من الطبيعي، والآن هو مستلقٍ على جنبه، وقوائمه ممدودة، ولسانه بادٍ من فمه المفتوح، الذي سال منه بعض اللعاب على الأرض، كانت عيناه مفتوحتين وغير لامعتين. بكى أندريه عند باب الغرفة قائلاً: اعذرني، اعذرني.

شيء لا يمكن تصديقه إطلاقاً، لا يمكن!

كان يجب عليه عملُ شيء ما دون تلكؤ، مسحَ أندريه على صدر غراف، شعر أنه لمَّا يبرد بعد، فغَطَّاه من جديد ودخل إلى المطبخ. كانت

تاتيانا هناك، تكلما قليلاً ثم شكر ربه أن زوجته لم تلمه، فيكفيه ما يشعر به من ذنب وتأنيب للضمير.

اتصل بعد ذلك ببوريا، الخبير في كل شيء، كان في هذه المرة ثملاً، ولم يستطع القدوم، ولا يمكنه أن يتخيل ما يجب عمله في هذه الحالة. لم يستطع أحد أن يرشده إلى ما يجب عليه القيام به، حتى إنه اتصل بمن اشترى منهما هذا الكلب، لكنهما كانا يعيشان خارج المدينة، فقدَّما له التعازي الصادقة وقالا: إنهما قد دفنا كلبيهما السابقين في أرضهما تحت شجرة البتولا. وكل من اتصل بهم أندريه، اقترحوا عليه الانتظار حتى الصباح وأبدوا استعدادهم للمساعدة. إلّا أن تاتيانا كانت تتوسل إليه وتناشده إخراج غراف، كانت بالتحديد تتوسل.

ارتبك أندريه واحتار في أمره، لم يكن بمقدوره الجلوس خلف المقود، والذهاب بالسيارة إلى أي مكان. أما أصدقاؤه الذين اتصل بهم، فمنهم من كان في بيته الريفي، ومنهم مَنْ كان قد شرب كثيراً أو قليلاً بمناسبة يوم السبت،أو من دون مناسبة. أما تاتيانا فلم تكن تطلب منه فقط، وإنما كانت تتوسل إليه، وتقول: يجب جلب ماشا من عند الجيران، وحتى الآن لا أستطيع أن أقول أو أشرح لها أي شيء، ولا أريدها أن تراه ميتاً، ويجب أخذها بأسرع ما يمكن. لأن الجيران غير راضين... صحيح أن الجيران تعاطفوا معهم، ولكنهم كانوا يعبرون من خلال تعاطفهم عن استغرابهم لشدة الحزن الذي أصاب جيرانهم بسبب موت كلبهم، وكأنهم كانوا يريدون أن

يقولوا: طيب، مات، وهذا أمر مؤسف، ولكن البشر أيضاً يموتون كل يوم، فالحسرة والأسف يجب أن يكونا على البشر، وهم من أجل كلب يحزنون كل هذا الحزن!

كانت فاريا تبكي في غرفتها، ثم خرجت والدموع تنهمر من عينيها، ونظراتها تنم عن اتهام الأهل بكل ما حدث، وبشكل خاص أندريه. جلست فاريا على الأريكة إلى جانب غراف مظهرة الهدوء وصدق المشاعر، من دون أن تنزع الشرشف مسحتْ عليه وذهبت صامتة إلى غرفتها. أما أندريه فقد أرهقه السكر وتحوَّل إلى ألم شديد في رأسه، وعلى الرغم من ذلك ذهب إلى جاره، وأيقظه واستعار من عنده مِجْرَفَة عسكرية صغيرة موضوعة في غلاف.

جمعت تاتيانا في ذلك الوقت كل الأشياء التي تخص غراف ووضعتها في صرّة، ثم جلست في مدخل الشقة على كرسي خشبي صغير ناظرةً إلى ما جمعت، وكان واضحاً أنه قد زاغ بصرها، وجفَّتْ دموعها من شدة الحزن وكثرة البكاء.

توضعت أمامها الأشياء الخاصة بغراف - فراشه وقصعتان، كانت قد نظفتهما تاتيانا للتو! وطوق، ومقودان، وكمامة، وبعض الألعاب، وكرة مطاطية ملونة بالأزرق والأحمر.

كان أندريه يعتقد أن صوف الكلب سيبقى يصادفهم طويلاً في البيت، وفي السيارة، وعلى الملابس... ، ذهب إلى الجثة وشتم نفسه على الشعور بالقرف والاشمئزاز من حيوانهم الميت، ووضعه بعد أن

بردت جثته وتصلبت على الشرشف، ومسح الأرض ورمى الخرقة في سلَّة القمامة. وقبل أن يلفه، فكَّر ووضع إلى جانبه طوقَه ومقوده القديم المهترئ، ثم أراد أن يضع كمامته، لكنه تذكَّرَ أن غراف لا يحبها، حيث كان دائماً يُمانع برأسه كي لا يلبسوه إياها، فلم يضعها. ووضع اللعبة المحبَّبة عند غراف - الأرنب المطاطي صاحب الأذنين المتحركتين، الذي كان قد اشتراه بثمنٍ غالٍ من سوبر ماركت خاص بالكلاب في ألمانيا عندما ذهب إلى هناك لزيارة معرض خاص بتقنيات وخدمات التأمين.

بعد أن رَتَّبَ هذا كله، خطر في ذهنه أن الناس القدماء كانوا يرتبون ويضعون في القبر الأشياء اللازمة والغالية. لفَّ غراف وأغراضه ببطانية وربط الصرَّة بحبل غسيل.

في هذا الوقت ذهبت تاتيانا لترمي بعض الأشياء الأخرى الخاصة بغراف، لكنها لم تستطع أن ترميها في حاوية القمامة، بل وضعتها بمحاذاتها. وعندما عادت كان وجهها قد تغضَّن ثانية من البكاء، ورأت الصرَّة، فقالت في نفسها: إنه كان أنيقاً جداً،... وهكذا عاش معنا الفتى الصغير وأسعدَنا، وانتهى كل شيء. أما نحن فلم نهتم به، ثم انحنت ولامست الصرة ولكنها ما لبثت أن رفعت يدها، واستقامت، وسألته:

- إلى أين ستذهب به؟

- لا أعرف، سأجد له مكاناً ما وسأدفنه... لا تقلقي.

فقالت له وهي تضع يدها على خدها:

- سأذهب لأستدعي ماشا، ومن ثم سنخلد للنوم. ومن فضلك يا أندروشا لا تخبرني فيما بعد أين دفنته، ولا تجعلني الآن أقلق عليك. قال أندريه عند العتبة وهو يحمل الصرَّة بيديه:

- هيَّا يا عزيزتي، ناوليني المِجْرَفة من فضلك، لن أتأخر...

عندما دخل أندريه المصعد، شاهد آثار مخالب كلبه قد ارتسمت في كل مكان منه، كان حينها يمسك به بالمقود، أما الآن فلا حاجة لاقتياده، وأصبح محمولاً بين يديه. كان غراف دائماً يقف على قدميه الخلفيتين من دون صبر ويخرمش باب المصعد، ويبدأ بهذه الحركات عندما كانا يتجاوزان الطابق الثاني. كان أندريه يعتقد أنه سيكون هناك الكثير والكثير من الأشياء التي ستبقى تذكره بكلبه. وعلى الرغم من انشغاله به فقد وردت إلى خاطره أفكار أخرى كالإسراع في إجراء بعض الإصلاحات الضرورية في البيت، مثل لصق ورق جدران جديد وتغيير بعض الموبيليا، والأريكة بكل تأكيد. فمن غير المعقول الاستمرار باستخدام هذه الأريكة التي كان غراف يجلس عليها في أثناء غيابهم، أجل الأريكة التي وجدوا فيها غير مرة عظمة مخفية.

خرج أندريه إلى الفناء شارد الذهن، ونظر إلى فناء البناء ذي الطوابق التسعة، الذي عاشوا فيه أكثر من عشر سنوات. كان الفناء منظماً ومزوداً بكل المرافق العامة بما في ذلك الكراج الذي يحوي

سيارات ساكني البناء بما فيها سيارته، وساحة الأطفال، وحوضان بائسان ذبلت أزهارهما، وليس فيهما ما يبهج النظر.

قال في نفسه: إنه فناء كسائر الأفنية المجاورة، بل في الحقيقة مثلها تماماً. أدرك في هذه اللحظات أنه لا يعرف منطقته بالتفصيل بشكل جيد. كان يذهب مع غراف حتى روضة الأطفال والملعب، حيث ساحة الكلاب. وكان يعرف أيضاً طريقةَ الوصول إلى السوبر ماركت ومدرسة فاريا القريبة، أما المدرسة التي درس فيها هو، فكانت تقع بعد هذه المدرسة بقليل. عاش في هذه المنطقة تقريباً كل حياته، لكنه لم يكن يعرف التفاصيل الجديدة، حتى إنه لم يكن يعرف كيف يمكنه أن يصل عبر الأفنية إلى مدرسته التي درس فيها. توقَّفَ قليلاً بعد أن وضع حمله على الأرض، ثم تناول الصرة وحملها بشكل مريح أكثر، وثَبَّتَ المجرفة تحت إبطه، وسار باتجاه الفناء المدرسي.

كان الشارع مضاءً بأنوار المصابيح الخافتة، وكان من النادر أن تصادف أحداً يسير في مثل هذا الوقت في هذا المكان، لكنه قابلَ رجلين منفردين يسيران متتابعين، وصادف مجموعة أخرى من الشباب يسيرون وهم صامتون تدلُّ عليهم ومضات سجائرهم المتوهجة خلال الظلام.

كان يَحْذَر أمثال هؤلاء الفتيان عندما كان صغيراً، ثم لازمه هذا الحذر حتى الآن. مَرَّ الفتيان بجانبه بشكل صامت، وقد كان واضحاً، أنهم أثاروا ما لديهم من إزعاج في مكان ما، فتجنبهم أندريه، مفسحاً لهم في الطريق، أما هم فلم يكن في نيتهم التنحي لأحد.

كـان كـل شيء في فنـاء المدرسـة مـنظماً بإتقـان. قـال أندريـه لنفسه «لديهم مدير جيد»، وتذكر مدرسته وفناءها. كان هناك أماكن للهو و«الشقاوة» بين شجيرات الليلك والنباتات الأخرى، وفي ملعب كرة القدم المهمل، وبين أنقاض دفيئة خَرِبَة، وفي الكثير من المخابئ السرية، حيث كان التلاميذ يدخنون ويجلسون مع البنات... أما هنا فليس بالإمكان العثور على بقعة أرض غير مغطاة بالإسفلت أو غير معبَّدة. قال أندريه في سرِّه: يالهم من مساكين هؤلاء الأطفال، لا بد أنهم يكنسون الأرض هنا كما لو كانوا من المحكومين بالأشغال الشاقة. «يا للفظاعة!»

تجاوز تماماً فناء المدرسة، ثم توقف في الساحة الرياضية حيث تنتصب أجهزة «الثابت» الحديدية، ونظر حواليه فوجد الأرض مفروشة بالحصى ومرصوصة بشكل جيد، تابع سيره باتجاه أنوار مصابيح البرج التلفزيوني، وتذكر أن هذه الأنوار كانت دائماً تثير لديه الكآبة والضجر، ومع ذلك استمر في السير باتجاهها لأن في ذاك الجانب توجد دار سينما وحديقة البلدية الصغيرة وفُسَحٌ.

لم يذهب أندريه منذ مدة طويلة إلى تلك السينما، ولم يكن يعرف كيف يمكن الوصول إليها عبر الأفنية، لكنه تذكَّر بأنه يجب عليه أن يمشي باتجاه البرج التلفزيوني.

بدأت الصرَّة تثقل، وأصبحت المجرفة تنزلق من تحت إبطه، فأخذها بيديه الاثنتين وضغطها مع حِمْلِهِ إلى صدره، فبدا هكذا أكثر راحةً بكثير، ولكن ليس لفترة طويلة.

الجو بارد وغير مريح، والأهم من هذا كله.... كل شيء ليس على ما يرام، كما كان في النهار. فكّر بهذا شاعراً بأنه لم يكن هناك داعٍ لوجوده في هذا الوقت في الشارع.

سمع طنين الطاقة الكهربائية القويّ جداً عندما مَرَّ بالقرب من محطة التحويل الكهربائية، ووجد مكاناً لا بأس به خلف هذه المحطة: مجموعة شجيرات وسياج، لكنه لم يرغب بالحفر بالقرب من هذا الموقع الكهربائي الخطر. إضافةً إلى ذلك كان الجو مظلماً جداً، بالتحديد بالقرب من هذه المُحَوِّلة، فكّر ساخراً: إن المصباح القريب احترق على ما يبدو، «نعم، يا للغرابة! من هنا تُنْقَل الكهرباء إلى كل المصابيح، وهنا ظلام. وهكذا كل شيء في الحياة..»، وعندما كان يتجاوز مبنى روضة الأطفال حاول أن يرى من خلال الظلمة ما يوجد خلف السور. كان الطريق مُناراً بمصباح، بينما كانت الظلمة حالكةً وراء السور. وخمَّن أن تكون هناك أكواخ للأطفال وزلّاقات خشبية ومظلة على شكل فطر فوق حوض فيه رمال للعب الأطفال.

وفجأة، وصل إليه صوت من خلال الظلام صادر عن شباب صغار كما يبدو: إلام تنظر أيها الرجل؟ هل تبحث عنَّا؟

بينما كانت الضحكات الصاخبة تصدر عن هؤلاء الفتية المتخفين مع فتياتهم وهم يجلسون على شرفة روضة الأطفال من دون أن يراهم أندريه، أما هو فكان ضوء المصباح يظهره واضحاً. صدر صوت آخر:

- ما بك أيُّها الأب، هل أتيت لتطمرَ كنزاً؟ أَعْطِنا إياه مباشرة!.

وضحكوا من جديد. ثم علا صوت يقول بلهجة شديدة الفظاظة: إلى أين يا أخانا؟ تعال نتقاسم الكنز، إلى أين تهرب؟ ودوّت الضحكات ثانية.

ذهب أندريه بعيداً مسرعاً غير خائف من ملاحقته لأنه كان يشعر أن الفتيان صغار، وعلى الأغلب فهم يتباهون بأنفسهم أمام فتياتهم. وقال لنفسه: «نعم، ويمكن أن يكون الشباب غير سيّئين، ولكنهم كانوا ببساطة يُحْيون منتصف الليل في الشارع قبل أن يأتي فصل الشتاء»، وتذكر، كم جلس هو نفسه في مثل روضة الأطفال هذه وفي مثل هذه الحدائق الصغيرة، وتَخَيَّلَ بشكل واضح، كيف يبدو هو الآن في الليل وهو يحمل مجرفة وشيئاً ما كبيراً ملفوفاً بشرشف مُلوّن.

أُفلتت من فمه عبارة: أي هذيان هذا! ثم فكّر في سره: «كيف هذا؟ لا بد من وجود هيئة خدمية تمارس هذا العمل»، «أين يذهبون بالكلاب، بالقطط، التي تنفق؟ لابد من وجود هاتف أو معلومات تُعَرِّف الناس بهذه الهيئات، ولكنني... ببساطة لا أمتلك هذه المعلومات».

تذَكَّرَ كل التقارير التلفزيونية حول صالونات حلاقة الكلاب، وفنادق الكلاب والقطط، بل حتى عيادات لمعالجة أسنان هذه الحيوانات. وتذَكَّرَ أيضاً أنه يوجد في إنكلترا مكان خاص يُرَكِّبون فيه أسناناً للكلاب، هذا إذا صَدَّقنا التلفاز. «يجب أن يكون لدينا شيء ما مشابه لهذا، ولِمَ لا؟! الكلاب كثيرة جداً! وكذلك الكبيرة منها»، لكنه لم

يسمع مرة عن مقبرة خاصة بـالكلاب. بَرَقَتْ في خـاطره فكـرة، لماذا لم يمارس أحد هذا العمـل؟! ثـم خطـر لـه أن مثـل هـذه المقـبرة لا بـد مـن أن تكـون موجـودة عـلى الأغلـب في مكـان مـا، ولكنـه لا يعـرف أيـضاً أي شيء حول ذلك.

لم يكن أندريه جدياً بحبه لكـرة القـدم، ولم يكـن هاويـاً حقيقيـاً في اهتمامه بالكلاب.«ولكن أين يذهبون بالكلاب التي تنفق، أيـن تختفـي كل هذه الكلاب؟!»

فكَّرَ أندريه وفكَّر.

مرَّ عبر فناء بناء طويـل وعـالٍ، كانـت الإنـارة هنـا أكثـر مـن تلـك الصادرة عن النوافـذ المـضاءة النـادرة ومـن إنـارات المـداخل. كـان قـد وقف رجلان بالقرب من ساحة الأطفال، وكانا يدخنان، وقد استلقت عنـد أقـدامهما كلبتـان، إحـداهما كلبـة حراسـة والأخـرى كلبـة مهـماتٍ خاصة. من المحتمل، أن هذين الرجلين كانا يتنزهـان مـع كلبتـيهما وقـد توقفا مـن أجـل التـدخين والثرثـرة، وكـان الوقـت بعـد منتـصف الليـل بكثير، فيوم الأحد قد بدأ، ولهذا كان ممكناً الوقوف والتدخين.

هَبَّـت كلبـة الحراسـة عنـدما رأت أندريـه، وحاولـت شَـدَّ المقـود، وبدأت تنبح، وكادت أن تقلب صاحبها، فصاح هذا بها:

- فو(*)، آسترا، فو!

وقال لأندريه: عفواً، لا تخف!.

(*) فو: اسم فعل بالروسية بمعنى اهدأ . المترجم

أما كلبة المهمات دوغ، وبشكل أدق، دوغينا فقد وقفت أيضاً وزمجرتْ،

فأمرها صاحبها قائلاً:

- دونيا، اجلسي... لمن قلتُ، اجلسي!

جلست دونيا، أما آسترا فكانت قد صمتت.

كان أندريه يعرف الكلبة دونيا، إذ إن غراف كان يلاحقها ويسعى للتواصل معها في ساحة الكلاب. إلّا أن غراف لم يكن يعرف كلمة «استلق»، ولا كلمة«اجلسْ»، ولا كلمة«فو»، كان يعرف كلمة«تَنَزُّه» بشكل رائع، وكان في كل مرة عندما يسمع هذه الكلمة يُسَرُّ بشكل لا يوصف، حيث كانت تبدو عليه السعادة الحقيقية، وكأنه لم يتنزه في حياته قط. كان أندريه يقول في نفسه:«لا يمكن أن يفرح غراف كل هذا الفرح عند الخروج في نزهة لمجرد أنه سيتمكن من التبوّل أو التبرّز حتى ولو كان يشعر بحاجة ملحة إلى ذلك». ودائماً كان أندريه يخمّن أن كلبه«يأمل بشيء ما آخر، وهو في أثناء كل نزهة يأمل بهذا الشيء».

لم يلق أندريه السلام على الرجلين، ولم يطلب منهما أن ينصحاه بما يجب عليه أن يعمل، بل أسرعَ وتجاوزهما وهو يحمل كلبه الميت محتضناً إياه إلى صدره، وكان يشعر بحمله يصبح أثقل وأثقل.

كان يمشي ويتمتم:«حسن، وإن يكن غراف لم يعرف هذه الأوامر، فنحن بالمقابل لم نعذِّب بعضنا بعضاً بهذا الترويض. غراف كان ذكياً بالفطرة ويعرف ما هو مسموح وما هو ممنوع».

تذكّرَ أندريه كيف كان يجلس غراف خلف المائدة، ويضع رأسه على ركبته، و يحدِّق بعينيه حيث كانت نظراته في هذه الأثناء تبدو وكأنها تدخل إلى أعماق النفس، وذلك عندما كان يستعطي الطعام.

أما بالنسبة للضيوف فكانت نظراته ثاقبة، وكان يتصنع شكلاً يوحي بأن مالكيه يضربونه ولا يطعمونه أبداً، وكان يصدر أصواتاً شبيهةً بصوت الدلافين. وطبعاً، لم يكن يحتمل أحد من الضيوف هذا، فكان الجميع خفيةً عن أندريه، وأندريه خفيةً عنهم يعطونه شيئاً ما من المائدة. كان واضحاً أن الكلاب ذات التربية الحقيقية لا تتصرف بهذا الأسلوب. لكن أندريه كان يقنع نفسه، وهو يحمل كلبه الميت، بأنه أحسن صنعاً تجاهه، وكان يتَصَرَّفَ معه بشكل صحيح لأنه لم يستخدم العنف في تربيته.

تجاوز البناء بسرعة وخرج إلى الأتوستراد، ووصل إلى المفرق. أدرك هنا مباشرة في أي مكان هو وإلى أين سيتوجه. كان عليه أن يجتاز الشارع عبر الأتوستراد، وبعد ذلك السينما والحديقة، كان المفرق مُناراً والضجة تملأ المكان. احتار أندريه كيف يتصرف، فقد كانت تقف بعض السيارات العامة والخاصة في الجهة المقابلة، وهناك أيضاً كشك مضاء. أما فوق الأتوستراد فقد عُلِّقت لوحة إعلانية رُسم عليها بطاريق نظيفة ومرحة جداً تخرج من غسالة ملابس جميلة. وكانت السيارات تمر مصدرة حفيفاً عالياً.

أمسك أندريه الصرّة ضاغطاً عليها بالمجرفة إلى صدره وقد انحلّت عقدة طرف الشرشف وتدلى، تخيَّلَ هنا كيف يبدو شكله، فتعرَّقَ وجهه.

توقَّفَ قليلاً، ولم يقرِّر بعد اجتياز الأتوستراد من خلال ممر المشاة. كانت قد توقفت سيارتان عند إشارة المرور: سيارة شحن وسيارة رياضية بمحرك ذي ضجيج واضح. لم يجرؤ على المشي مع الصرة الكبيرة والمجرفة أمام السيارتين وتحت أضواء مصابيحهما وأنوار الشارع، فاستدار وذهب بعيداً عن المفرق. سار مسافة ثلاثمئة متر باتجاه مكان أكثر ظلمة، ثم هرول قاطعاً الأتوستراد في الوقت الذي خلا فيه من السيارات حتى لمسافات بعيدة. بعدئذٍ تجاوز فناءً مظلماً لمخزن منتوجات غذائية كان ينبعث منه مزيج من روائح واخزة لمنتوجات مختلفة غير طازجة، ثم مَرَّ بفناء آخر، وفي النهاية دخل حديقة حيّ مهملة، وكانت هذه الحديقة محاطة بسياج صدئٍ، والوصول إليها من الفناء يقتضي المرور عبر باب خوخة(*) صغير.

كانت قد عُلِّقتْ لوحة على هذا الباب الصغير «ممنوع تنزُّه الكلاب». ضحك أندريه بمرارة لأنه لم يأتِ يوماً قط مع غراف إلى هنا.

كان الجو في الحديقة مظلماً ورطباً. مشى أندريه على الطريق الواصل إلى ممر الحديقة، حيث يوجد ضوء خافت يومض في الظلام.

كان الحشيش في الحديقة طويلاً وبارزاً إلى الأعلى وقد شابته الصفرة، وأشجار الحور تهتز مثيرةً ضجةً، وهي مازالت تحتفظ بنصف أوراقها التي نمت على أغصانها صيفاً، أما الأوراق الباقية فقد سقطت على الأرض وغطت الطرقات والممرات وأصبحت زلقة.

(*) باب خوخة: باب صغير ضمن بوابة كبيرة . المترجم.

خرج إلى إسفلت ممر الحديقة المتسخ تحت ضوء المصباح، واقترب من مقعد خشبي، حيث التصقت أوراق الشجر، وجريدة مجعدة مبللة. وضع أندريه صرته على المقعد، وتمطّى بكامل جسمه وزفر مطلقاً من فمه بخاراً.

هَزَّ رأسه وفَكَّرَ كيف سيبدو فيما لو سار على الأتوستراد مع حِمْلِهِ. شخص يسير ليلاً مع صرّة ومجرفة في المدينة! كيف يمكن أن يُفهم هذا؟ نعم وليس أي شخص، وإنما هو! أندريه السمين، ذو اللباس الأنيق، الشخص الجدِّي البالغ!

كان سميناً دائماً منذ طفولته، كان أندريه هو الدُّبُ في جميع أعياد الأطفال. كم كان جميلاً هذا آنذاك، كل الكبار كانوا يبدون تأثرهم وإعجابهم، وكانت جدته شديدة الابتهاج بذلك.

تذكر بعد ذلك أن أصدقاءه أصبحوا يطلقون عليه فيما بعد لقب «الفقاعة» أو «كتلة الشحم»، ليس من باب الإساءة، بل من باب المزاح والمرح، ولكن هذا لم يكن محبباً له.

كان قوياً وأقوى من كثير من أصدقائه وأقرانه وخصومه، لكنه لم يستطع قط أن يركض مثلهم بسرعة ولفترة طويلة، وفيما بعد لم تناسبه حتى أحدث موديلات الألبسة.

قام أندريه ببعض المحاولات الجدية والأقل جديةً بهدف التنحيف، عمل ذلك بأساليب مختلفة، وفي نهاية المطاف تأكد أنه من أجل التنحيف يجب بكل بساطة ألَّا يأكل، وهذا ما لم يتمكن من فعله.

كل شيء كان ينتهي بمناجاة داخلية مثل: «هكذا، أكلتُ اليوم قَرِيْشَةً فقط في الصباح، شُوْربة خفيفة في النهار، وحبتين من الطماطم مساءً. كل هذا هُراءٌ في هُراء». بعد هذه المناجاة كانت تبدأ شراهة ليلية سريعة في الأكل عند البرَّاد. كان قد نفض يده من هذا كله منذ سنتين، ولم يعد يلتفت نحو ألبسة الموضة والبلوزات الضيقة، لكنه كان أنيقاً دائماً، ومعجباً بيديه الصغيرتين والجميلتين بنظره. كما كان يحب ارتداء الملابس الفاتحة.

وقفزت إلى خاطره ذكريات، منها:

ذات مرة عندما كان في الصفوف المتقدمة أعطاه والده محفظته الجديدة، لم يكن أندريه قادراً على إيجاد الكلمات المناسبة ليشرح لوالده أنه لا يمكنه الذهاب إلى المدرسة مع محفظة كهذه ، والتي هي أصلاً للكبار، علاوةً على ذلك، ليس فقط لا يمكنه، وإنما كان هذا مستحيلاً بالنسبة إليه، وكان هذا واضحاً له إلى درجة أنه لم يجد الكلمات المناسبة لإقناع والده بذلك. وذهب إلى المدرسة مصطحباً حقيبة والده الجلدية الكلاسيكية ذات اللون البني، وقد عانى ما عاناه منها في المدرسة، فقد عَذَّبَتْهُ هذه المحفظة حتى نهاية المدرسة.

نظر أندريه في جميع الجهات، وكانت في الحديقة أماكن مناسبة كثيرة. أخذ المجرفة ونظر إلى الصرَّة، حاول كبت وإبعاد الشعور بالخجل والإحراج اللذين شعر بهما عند مفرق الطرق، ثم أعاد في نفسه مشاعر الحزن والمسؤولية، يريد حقاً أن تكون الأمور غير مرئية، ولكنه

أيضاً لم يرد أن يخرج من الضوء ويحفر في الظلام، فتوجه إلى أقرب شجرة من المقعد، وبدأ يحفر قرب الظل الأسود، وبتعبير أدق بدأ محاولاً الحفر. لم يكن العمل ممكناً بهذه المجرفة كما يجب، إذ إنها لم تكن صغيرةً، ولا كبيرة. وبدا واضحاً أنه لم تكن لديه القوة الكافية لغرزها في الأرض، فبدأ بتقطيع العشب وسحبه مع جذوره من التربة مدركاً أن هذه المهمة لم تكن لتنتهي في خمس عشرة دقيقة.

فجأة، بدا أندريه واضحاً تحت شعاع ضوئي، وكان هذا الشعاع ساطعاً ومتحركاً.

سمع صوت شاب سليط جداً:

- أيُّها المواطن! ماذا تفعل هنا؟

ارتبك أندريه من الصوت ومن ضوء المصباح الموجّه مباشرة إلى وجهه، لكنه استطاع أن يرى خيالين في قبعتين وزوجاً من الحشرات يطيران، وقد احتفظا على ما يبدو بنشاطهما حتى في الخريف.

سمع صوتاً يختلف عن الصوت الأول وشاهد إحدى القبعتين تهتز:

- تعال إلى هنا! تعال إلى هنا يا مواطن!

ذهب أندريه باتجاه الشخصين، وكانا قد سلَّطا الضوءَ في عينيه بلا شفقة وهو في طريقه إليهما.

ألقى التحية عليهما، فردَّا عليه: مساء الخير.

كان الشرطيان شابين وغير طويلين. نظر هذان الشرطيان بإمعان إلى المجرفة، ثم إلى عينيه، وأطفأا مصباحيهما. سأله الشرطي الأول /ذو الوجه الأصفر الشاحب الذي يغطيه النمش /، وكانت عيناه غير ملونتين كما تبدوان تحت أضواء الحديقة:

- ماذا تعمل هنا؟

بينما كان أندريه يسير إليهما، كان قد فطن بشكل جليٍّ إلى أنه لا توجد لديه ثبوتيات شخصية، ولا نقود، وتذكّرَ أيضاً، أن رخصة القيادة وأوراق السيارة أيضاً بقيت في البيت. ولهذا السبب سرت البرودة في جسمه كله على الفور، ولكنه تذكر في الحال أنه الآن ليس خلف المقود...

كرَّرَ الشرطي الأول السؤال: ماذا تعمل هنا؟

ثم سأله الشرطي الثاني /ذو الجسم النحيف / وهو يبتسم، وكان واضحاً أن جزءاً من أحد أسنانه الأمامية قد فقد: هل تبحث هنا عن كنز؟ أيمكن مساعدتك؟

قال أندريه:

- لا، لا، ما بكما، أي كنز؟ هنا، تعرفان...

ولكن، في هذا الوقت أصدر جهاز اللاسلكي الذي يمسكه هذا الشرطي تشويشاً وكلاماً غير مفهوم، وأجاب الشرطي بطريقة غير مفهومة أيضاً، وصمت الجهاز.

وعاد الشرطي الأول يسأل:

- ماذا؟ ماذا؟

- أنا، أنت تعرف... - بدأ أندريه من جديد.

قاطعه الشرطي الثاني:

- أرنا الوثائق الخاصة بك.

بدا أندريه مرتبكاً في الشرح بأنه لم يأتِ معه بالوثائق، كونه يعيش في مكان قريب جداً، وهنا لَوَّحَ بيده كما لو كان في اتجاه منزله، لوَّحَ للإيضاح والإقناع، وأدرك في اللحظة نفسها أنه لوَّحَ بالاتجاه الخطأ، فاعتذرَ، ثم أشار إلى الاتجاه الآخر. طلبا منه العنوان، فقال عنوانه بتلكؤ وارتباك وتعرَّقَ كلياً، وأصبح خائفاً من دون أن يفهم لِمَ أُصيبَ بالخوف. ثم طلبا منه العنوان مرة أخرى، وبعد أن عرفا اسمه، واسم والده، وكنيته، وعمره، أخبر الشرطي الثاني عن هذا كله في جهاز اللاسلكي الذي بدأ بالتشويش والصفير خلال الاستجابة. ضحك الشرطي الأول ساخراً:

- هل أنت ذاهب إلى الصيد؟ فالحفر والبحث عن الديدان في الحديقة ليس جيداً، وماذا لديك هنا؟ وأشعل المصباح ووجَّهَه إلى الصّرة الموضوعة على المقعد.

- عذراً، أنا أعرف أن هذا يبدو غريباً، ولكن هنا لدينا حالة...

بدأ أندريه يتكلم، فقاطعه من جديد جهاز اللاسلكي.

كان الشرطي الثاني يستمع إلى جهاز اللاسلكي، حيث الكلام غير واضح تماماً بالنسبة لأندريه بسبب التشويش، وقال الشرطي: «طيّب!»

ثم صمت جهاز اللاسلكي من جديد.

سأل الشرطي الأول بصرامة:

- ما لديك... هنا أيُّها المواطن؟ وحاولْ أن تشرح ماذا تفعل هنا؟

أخذ الخوف من أندريه كل مأخذ وبدا مرتبكاً تماماً، وبدأ يشرح ما حدث وكيف، بشكل غامض.

سأل الشرطي الثاني:

- ماذا لديك هناك، كلب أم ماذا؟! أرنا!

استمر أندريه في قول شيء ما، وبدأ في فك الحبل، لكنه لم يحسن عمل ذلك بشكل جيد، فكان مضطرباً، واعتذرَ، ولكنه تمكن أخيراً من فَكّ وحلّ كلّ شيء. وبعد أن فتح جزءاً من الصُّرة، ظهرت ساقا غراف الخلفيتان وجنبه المجعد الأصْهب.

قال الشرطي الأول:

- هذا واضح، يكفي، لُفَّه... يعني أنك أردتَ طمره هنا، هل فهمتك بشكل صحيح؟

أجاب أندريه باختصار:

- نعم، أردت دفنه.

قال الشرطي الثاني بلسان سليط:

- ها...ها ! ألست تعلم أن هذا المكان هو مكان عام، وهو عبارة عن حديقة؟ وهل تعرف ما الذي سيحدث لو جُلبت كل

الكلاب والقطط والفئران البيضاء النافقة لِتُدْفَن هنا؟ (وشدّد بشكل خاص على كلمة «تدفن» بشكل ساخر لاذع) وماذا سيصبح هنا؟ طبعاً! لِنَجُرَّ سلاحفنا وأحواض الأسماك أيضاً إلى هنا! وبالمناسبة فالأطفال يلعبون ويلهون هنا.

بدأ أندريه يشرح شيئاً ما للتبرير، ولفَّ غراف من جديد، وافق على ما قالاه، واعتذر، وهو يهز رأسه.

تابع الشرطي الثاني:

- أندريه ميخايلوفيتش يجب إيقافك ومعاقبتك، اذهب مباشرة إلى المنزل، بحيث لا نراك هنا أو في أي مكان آخر. مفهوم؟! أفهمت قصدي؟

قال أندريه: مفهوم.

وأمسك الكلب بين ذراعيه ووقف متعرِّقاً أمام الشرطيين قصيري القامة.

واصل الشرطي الثاني:

- خذ مجرفتك، نحن لسنا بحاجة لأي شيء منك، ولا داعي لتمثيل مأساة أمامنا هنا! نحن هنا (وقام بإشارة غير محددة وكأنه كان يشير إلى المدينة بأكملها) رأينا الكثير من هذا وغيره.

قال الشرطي الأول:

- حقاً، اذهب إلى البيت، كان عندي أيضاً كلب في القرية، كلب جيد...أنا أعلم ما هو الشعور عندما ينفق الكلب المحبوب، لكن هذا لا يبرر توسيخ الأماكن العامة.

قال أندريه بضعف:

- عفواً، وإلى أين سأذهب به؟

أجاب الشرطي الثاني بحدةٍ:

- إلى البيت! ألم تسمع؟ وهناك ستفكِّر.

قال الشرطي الأول:

- أنت تعرف، توجد هناك حاويات كبيرة للقمامة، يتم فيها جمع أوراق الشجر والقمامة من الحديقة، خذها إلى هناك، وهذا أمر عادي، وبالنسبة إليها أصبح الأمر سيان. صدِّقني... هذا شيء عادي.

قال أندريه بصوت خافت:

- بالنسبة إليه، وليس إليها.

- ماذا تقول؟

- أقول بالنسبة إليه، إن كلبي ذكر وليس أنثى.

أجاب الشرطي الأول:

- أه آه آه، ما الفرق الآن؟

ودَّعَ أندريه والشرطيان بعضهم بعضاً وافترقوا. مشى أندريه دقيقةً في الجهة التي أشار إليها الشرطيان.

تفو! - بصق بصوت عالٍ - تفو، تفو، تفو، بصق وأراد أن يشتم بكلمات بذيئة. كان الأمر مثيراً للقرف ومعيباً ومُحزناً... وأحَسَّ أيضاً بأنه يريد أن يشرب الآن.. فوراً، في الحال!

حقاً، كانت هناك حاويات قمامة كبيرة في نهاية الممر، وكان عددها ثلاثاً، تناثرت حولها أوراق مبللة وبعض الأكياس الممزقة ونفايات أخرى. وكان واضحاً أن الذين ينقبون في القمامة فتشوا فيها، أما الآن فهم غير موجودين. امتلأت حاويتان بالقمامة العادية، أما الثالثة فامتلأت بأغصان وأوراق الشجر، وعلى الرغم من المطرة الأخيرة كان يخرج من هذه الحاوية دخان، فعلى ما يبدو أشعل شخص ما النار في أوراق الشجر وهي ما زالت تحترق في مكان ما داخل الحاوية.

اقترب أندريه أكثر من الحاوية، فشم رائحة الدخان اللاذعة وروائح أخرى كريهة تنبعث منها.

تراجع خطوة إلى الوراء وتوقف، وشعر بأنه مرهق جداً، وأصبح حمله أثقل بكثير، وشعر أن كلبه أصبح غريباً عنه، وهو لا يمتّ بأي صلة لغراف الذي كان على الدوام نشيطاً ومرحاً! فكَّر لوهلة من الوقت أين يضعه؟ لم يرغب في أن يرميه بين الأوساخ، حتى إنه ليس فقط لم يرغب، بل لم تتحرك يداه لعمل كهذا، وبدأ يتخيل كيف سيحترق شعر كلبه وتنبعث منه الرائحة، وأيضاً لم يكن يريد أن يترك

غراف في الحاوية الأخرى مع أوراق الشجر، بيد أنه خطا إليها، وكان على استعداد أن يفارق حمله.

فجأة تمتم مع نفسه بصمت: ولماذا هذا؟ ولماذا يجب عليَّ أن أُنَفِّذَ ما قاله لي هذان الصبيّان؟ فأنا لا أريد أن أفعل هذا...

وقال شاتماً: «أُمّاهما كذا وكذا.!» ؟

استدار وغادر مبتعداً عن هذا المكان، وسار عبر الحديقة وإذ به بجانب النصب التذكاري لرواد الفضاء الذين هم من مواليد هذه المدينة. كان الشخص الذي يعانق الصاروخ يبدو أكثر اسوداداً من الحديقة ليلاً، ومن الأشجار ومن السماء المنخفضة التي يتوجهان نحوها.

اجتاز أندريه الحديقة كلها، وخرج منها، وإذ ببرج التلفاز أمامه بارتفاعه الكامل، وقد أحاط بالساحة النظيفة والمضاءة جيداً سور فولاذي عال، وقد نُصب وسط هذه الساحة هيكل معدني امتدَّ عالياً عالياً. رفع أندريه رأسه ورأى الأضواء، ورأى فوقها أيضاً السماء المنخفضة، الخفيفة الإضاءة والمحمرَّة قليلاً.

قال أندريه بصوت عالٍ ناظراً باتجاه وميض البرج:

- وماذا عليَّ أن أفعل، هل سأبقى هكذا ماشياً طوال الليل؟!

أَحَسَّ برغبة جامحة للشرب لم يسبق لها مثيل، لدرجة أنه لم يشتهِ الشرب أبداً في كل حياته كما الآن. تجاوز أندريه مركز التلفاز، وخرج إلى شارع هادئ وسار بمحاذاته، هنا لا توجد أية حركة عملياً. وليس

ثمة سوى بضعة محالّ وصيدلية مناوبة ينبعث منها الضوء. كان أندريه يمسك بالصرة والمجرفة تارة بيمناه وتارة بيسراه. بحث في جيوبه فوجد فكَّةً تكفي لشراء شراب ما، ولكن المحالَّ، بالطبع، كانت جميعها مغلقة، وكان الكشك المجاور لموقف الباص مغلقاً أيضاً. أما النافذة الليلية في الصيدلية المناوبة فكانت مضاءةً. وكان أندريه يرغب بالشرب، فبدأ يطرق على النافذة معتمداً على الحظ، وسرعان ما أتت عجوز بلباسها الأبيض، وكانت تضع نظارةً كبيرةً، فتحت النافذة، وسألته بغضب:

- أسمعكَ

فقال لها:

- أحتاج لشرب شيء ما... بيعيني.

قالت له:

- ما بكَ؟! هذه صيدلية! اذهب من هنا، وإلَّا سأطلب الشرطة.

كذَّبَ أندريه عليها، وقال:

- أريد أن أبلع حبةً، إن وضعي الصحي ليس على ما يرام، ساعديني... من فضلك.

قالت وهي تنظر إليه باهتمام، وقَبْلَ أن يتمكن من تمثيل أو تصنُّع أي تعبير خاص على وجهه:

- آه! سامحني! تريد ماءً فقط؟ سأجلبه حالاً.

- نعم ... نعم! فقط ماء! بسرعة من فضلكِ!

ذهبت العجوز بقدر ما تستطيع من السرعة، ووضع أندريه حمله مع المجرفة على الإسفلت.

قالت العجوز وهي تمدُّ له كوباً خزفياً كبيراً أبيض رُسمت على أطرافه وردة جميلة:

- تفضل، خُذْ ماءً تمَّ غليه.

أخذ أندريه الكوب، وتظاهر أنه وضع حبةً في فمه، وشرب ماءً دافئاً برائحة إبريق شاي قديم.

قال أندريه:

- شكراً لكِ! أنقذتِني! الآن سأكون أفضل. (وأرجع الكوب).

قالت العجوز: إني أرى رجلاً سيقع عندي هنا، أرى وجهك وأعي ذلك.

وسألته: هل لديك ضغط؟

هزَّ أندريه برأسه.

- اعذرني من فضلك، لأنني لم أدرك هذا فوراً ففي كل ليلة يأتي إلى هنا كثير من السكّيرين المدمنين ويطلبون كحولاً، ويأتي أيضاً مدمنو المخدرات، و...

استمع إليها أندريه، وشكرها...وقال لها:

- حسن، أصبحت أفضل بكثير، شكراً جزيلاً!

تناول حمله واستدار وذهب.

فكّر: «وهكذا مَثَّلَ مسرحيةً كاملةً لأجل كوب من الماء. مسرحية كاملة... تفو!! وبصق».

مشى لبعض الوقت، ووصل إلى موقف الحافلات الثاني ثم جلس على مقعد مبلل وبارد، جلس ولم يفكّر بأي شيء، ناظراً أمامه مباشرةً. وبينما هو جالس هطل رذاذ خفيف بارد. وفي أثناء ذلك تسللت إلى ذهنه بهدوء فكرة دنيئة: هل يرمي غراف في الشارع كما لو صدمته سيارة؟ كان يرى دائماً كلاباً مدهوسةً كبيرةً وصغيرةً، كان يتجاوزها بدقة، وكل تلك الكلاب كانت تختفي من الشارع بسرعة كبيرة إلى مكان ما كما كان يبدو له، لكنه في الوقت نفسه نَحَّى هذه الفكرة الغريبة والباردة والمخجلة من ذهنه، ثم نهضَ وتابع السير.

كانت المدينة غير معروفة بكل تفاصيلها بالنسبة إليه، كان يدرك أنه لم يبتعد كثيراً عن البيت، ولكن المدينة فقدت شمالها وجنوبها، وفقدت معالمها، مشى ومشى، وأحسَّ فجأة أنه يغني، وبتعبير أدق، يتلفظ بكلمات الأغنية، ويحرِّك شفتيه بصمت، تَعَجَّبَ من هذه الكلمات ومن الأغنية نفسها. حتى إنه لم يتذكر هذه الأغنية، ومتى سمعها آخر مرة، لم يتذكر جميع كلماتها، فكان يكرِّر ويكرِّر المقطع نفسه.

كان أندريه يحب الغناء بشكل عام، ومتأكداً من أنه يمتلك أذناً موسيقية وصوتاً عذباً، صوتاً ليس قوياً، ولكنه عذبٌ، وحقاً كان يملك ذلك، يحب أن يغني أغانيه في مجموعة صغيرة وغير صاخبة، وليس وسط جوقة ثملة، حيث لا يسمع أحدٌ أحداً، ويُغَنُّون عشوائياً الأغنية

تلو الأخرى. يجب أن يؤدي منفرداً بهدوء وحزن بعد أن يكون قد شرب، كان يغني أغاني من الأفلام القديمة وأغاني عاطفية، فيسمعه الآخرون، ويتأثرون، بل ويترقرق الدمع في مآقيهم.

أما الآن، فكان يهمس بكلمات أغنية، كانت قد حُفظت بطريقة أو بأخرى بشكل غير مفهوم، في مكان ما في أعماق ذاكرته، وخرجت وحدها من هناك:

عندما أُصْبِحُ غيرَ محبوبة سأغادر بعيداً.
وأتزحلقُ على قضبان الدرج،
وأتزحلقُ على قضبان الدرج،
وأقعُ في الليل بعيداً!
ناي - نا - نا - نا - نا - نا
ناي - نا - نا - نا - نا - نا - نا...

ويكررها ثانية من البداية. كان أندريه قد تذكَّرَ أن هذه الأغنية غنتها آلّا بوغاتشوفا(*) منذ زمن بعيد. ولم تكن هذه الأغنية تعجبه كثيراً، وكان يستغرب كيف ظهر مقطع هذه الأغنية فجأة، وكيف تتناسب كلماتها مع حالته، وكيف علقت بقوة في لسانه...

أصبح متعباً كلياً، وباتت يداه لا تقويان على حمل غراف والمجرفة، وكان ينقل الصرَّة بشكل دوري من كتف إلى آخر.

(*) آلا بوغاتشوفا: مغنية روسية مشهورة. المترجم.

فكَّرَ أندريه بعد أن وصل إلى سور طويل لمنشأة بناء: هل يرمي حمله خلف هذا السور، وينتهي كل شيء.

وفيما كانت تدور في رأسه فكرة إلقاء الكلب، قرأ عبارةً مكتوبة على السياج: «بناء المنازل السكنية تنفذه جمعية..»، وكان قد كُتِبَ أيضاً بجانب هذه العبارة: «تنبيه: الكلاب تحرس حدود البناء». قرأها أندريه، وابتسم وهزَّ برأسه. كانت البوابات الموجودة في حدود البناء مفتوحةً، وبتعبير أدق مواربة. دخل عبر البوابة وبدأ يستطلع المكان، كان البناء تماماً في بدايته، شاهد على يمينه آليات مختلفة، وعلى يساره مقطورة ذات نوافذ مظلمة، ورُفِعَتْ سارية رقيقة فوق المقطورة أو ببساطة يمكن القول عصا تحمل مصباحاً في أعلاها. كانت ساحة البناء مضاءة بلون مصفر بنور المصباح. رأى أمامه تماماً حفرة أساسات غير عميقة ودُقّت فيها ركائز بيضاء، وفي الجانب البعيد من الحفرة كان ثمة ماء يعكس صورة السماء المظلمة وضوء المصباح.

نادى أندريه:

- ألو... ألو—و—و...

شعر على الفور، أنه لا يوجد أحد في هذا المكان، وأنه قد وصل إلى المكان الصحيح. مشى إلى الحفرة وكان يشعر أن الوحل يعلق بقوة بحذائه مع كل خطوة، حتى إنه كشّر لشعوره بالاشمئزاز. كان من المزعج جداً أن يدوس بحذائه الأنيق والنظيف دائماً مثل هذا الوحل.

توقف عند حافة الحفرة، في المكان الذي يُفترض أن ينشأ فوقه بناء للسكن في نهاية المطاف، دقَّق النظر بقدر المستطاع إلى أن وجد أقل

جوانب الحفرة انحداراً، فذهب إليه وبدأ ينزل، فانزلق وكاد أن يقع. طبعاً لو كانت نظارته التي تساعده على القراءة ومشاهدة التلفاز معه الآن لكان الأمر أفضل. كان أندريه يعتقد أن البصر لديه طبيعي، لكنه يضع نظارته في المساء ويعدّها سخيفةً ومثيرةً للسخرية، علماً أنَّه لم يختر لنفسه بعد النظارة المناسبة التي تليق به، وكان يرى نفسه عندما يضع أية نظارة شبيهاً للكاريكاتور، أو لشخصية من الأدب الكلاسيكي، أو لمهووس بالشر من أفلام هذه الأيام.

كان الوحل ينزلق تحت حذائه ويصدر صوتاً. وأخيراً تمكَّن من النزول ووصل إلى القاع، وأدرك أنَّه لا يمكنه الآن العثور على المكان الأكثر ملاءمة لحمله. وضع غراف على الحافة العليا لركيزة مغروسة في الأرض، ثم وقف بوضعية بحيث تكون الإضاءة أكثر، وبدأ يحفر منحنياً إلى الأسفل. كانت الأوحال غضارية ولزجة وكثيفة، ومع ذلك سارت عملية الحفر بشكل غير سيّئ. كان يحفر ويحفر، لم يُردْ ببساطة طمر غراف بالوحل، بل أراد دفنه بعمق وكما يجب، بما أنه قطع كل هذه المسافة الطويلة والصعبة. كان قد لوَّثَ بنطاله وحذاءه وأكمام سترته، وبإرادة قوية قرر التوقف عن التفكير وعدم الاهتمام في هذا كله. كان الغضار تحت الوحل أكثر جفافاً وقساوةً. حفر عميقاً حتى ركبتيه، وأدرك أن هذا سيكون كافياً. ثم خرج من الحفرة وبدأ بفك الحبل المشدود على الشرشف.

قال لنفسه بصوت خافت:

- آه، ماذا أفعل؟ لماذا؟!...«لماذا يجب فك الحبل؟» - ثم أدرك أنه فعل ذلك تلقائياً دون تفكير، من أجل أخذ الشرشف.

بصق وشتم نفسه على هذا...

أخذ أندريه الصرَّة وجلس مقرفصاً، وبلطف أنزل كلبه في الحفرة، ثم وقف على حافة صغيرة لقبر دائري تقريباً وجمع كل قواه، ليتذكر أكثر اللحظات بهجة وتأثراً في حياتهما معاً. كان قد أيقن أنه يجب عليه توديعه، وعليه أن يشعر بهذه اللحظة، وعلى الأقل محاولة صنع طقس ما لهذه الحالة. بدأ يستذكر، كم كان غراف مضحكاً، عندما كان صغيراً، وكيف حفر حفرةً في أحد الأيام بتفانٍ وبمسؤوليةٍ كبيرة في الفناء، وكيف كان ينظر إلى عيني صاحبه مباشرة ويصدر أصواتاً، شبيهةً بأصوات الدلافين، عندما كان يطلب الأكل.

كان يفكر ويتذكر، ويعي أنه يفعل ذلك بالتحديد بجهد كبير. أيقن أن مشاعره لم تعد قابلة للقيادة، وكأن هذه المشاعر لم تعد له، وهذه المدينة ليست له، والكلب الذي يدفنه، أيضاً أصبح...

تذكر بسرعة كم استخدم الشرشف لمدة طويلة على الشواطئ التي زاروها، وفي النزهات التي قاموا بها، وما أكثر الراحة التي جلبها لهم.وأخذ أندريه يشعر بالأسف على الشرشف، ملأ الحفرة بالغضار والوحل، وطبطبَ على الكومة الصغيرة بالمجرفة، ورصّها بقدميه، وقال:

- حسن... يا صديقي! شكراً لك لأنك عشت معنا! نحن أحببناك، لكنك أحببتنا أكثر. اعذرني، اعذرني على كل شيء! شكراً لك، كلبي! أشكرك! عندما قال كلمة«كلبي» ارتجف صوته، وامتلأت عيناه بالدموع. انحنى أندريه قليلاً، وخرج من حفرة الأساسات، وسار مبتعداً من دون أن ينظر إلى الخلف.

خرج من موقع البناء إلى الشارع، ضرب بقدميه بقوة على الإسفلت كي يتخلص من الوحل العالق بحذائه، ثم توجه إلى البيت واضعاً يديه الملوثتين في جيبي سترته المتسخة. مشى بسرعة ثم فكَّرَ... إذا كانت يداه في جيبيه فهذا يعني أنه نسي المجرفة في ذاك المكان. توقف، أحنى رأسه قليلاً إلى اليسار، وبدأ يتصوَّر كيف عليه أن يعود، وأن يدخل من جديد إلى موقع البناء، وأن ينزل في الحفرة...، أخرج يده اليمنى من جيبه ولوَّحَ بها وتابع سيره.

كان قد تغير شيء ما في المدينة. إنها الإضاءة، فالبيوت أصبحت تبدو بلون آخر، لم يكن الضوء قد ازداد ولكن البيوت أصبحت أكثر وضوحاً، ولم يكن فيها نوافذ مضاءة على الإطلاق، ولم تكن هناك سيارات أيضاً، وكان أندريه يمشي وحيداً.

وبينما هو كذلك، رفع رأسه إلى الأعلى وتوقف، فلاحظ فوقه شيئاً بين السحب، لم يره أبداً من قبل، لم يره في مثل هذا الوقت وبهذا الوضوح. رأى بين السحب نجوم الصباح، رأى الكثير من النجوم التي بدأت تختفي.

السَّكينَةُ

كان الطقس في حالة تدعوك لئلا تثق بأية توقعات، فقد شارف الصيف على الانتهاء. ومع أن الصفرة لمّا تظهر بوضوح على الأشجار، إلّا أن الريح قد شرعت تدفع بالأوراق المتساقطة، التي مازالت خضراء تماماً، إلى الزوايا ومداخل الأفنية.

انتصبت الأعشاب خلف أطراف المدينة عاليةً وغير نظيفة. كان الصيف في طور الانتهاء، أو بتعبير أدق، كانت جميع الأحاسيس توحي بأنه انتهى ولم يتبقَّ له سوى بضعة الأيام الباقية من شهر آب و...

عاد تقريباً كل الأصدقاء والأصحاب والرفاق والمعارف وزملاء العمل من أماكن لوّحتهم فيها الشمس، وأرادوا اللقاء، وتبادل الانطباعات. أما ديما[1] فقد أمضى الصيف كلّه قاعداً في المدينة. طبعاً هو لم يبق قاعداً طوال الصيف، ولكن ببساطة، إذا أمضى الشخص الصيف بطوله في المدينة، حتى ولو كانت أيامه خالية من المتعة أو الفائدة، فإنهم يقولون عنه إنه «كان قاعداً». وهكذا كان ديما يقول للجميع: أي إجازة هذه! لقد أمضيت كل الصيف قاعداً في المدينة.

(١) ديما: تصغير اسم دميتري (المترجم).

وكـان ديـما في أثنـاء ذلـك يتنهـد ويلَـوِّح بيـده بـسرعة، ويبـدو وجهه حزيناً.

كـان قـد أرسـل عائلتـه منـذ بدايـة شـهر تمـوز إلى أمـاكن أخـرى: الابـن الأكـبر إلى المخـيم الـدولي، كـي يـتمكن هنـاك مـن ممارسـة اللغـة الإنكليزية بشكل عملي، أما الزوجة والابـنة فقـد أرسـلهما في البـداية إلى الأهـل (أهلهـا هـي) في الـشمال، وبعدئـذٍ إلى البحـر، في الجنـوب، إلى مكان كانوا قد ذهبوا إليه معاً مرات عدة. وبقي هو في المدينة للقيـام ببعض الأعمال.

كان سبب البقاء في المدينـة والعمـل فيهـا لـبعض الوقـت وجيهـاً، ووجيهاً جداً. ومع حلول منتصف شهر تموز انـصهرت المدينـة بـشكل كامل من الحر الشديد، فلم تنجز أية مسألة، وتجمدت الأعمال التي كان قد خَطّط لإنجازها في الصيف. كان من الحماقة أن يُخَطَّط لهذا الكم مـن الأعمال للصيف، فأغلبية الناس، الذين يتعلق بهـم حـل عـدد كبـير مـن المسائل، سـافروا إلى أمـاكن مختلفـة، أمـا أولئـك الـذين بقـوا فقـد كـانوا متعبين وغاضبين، وكأنّ أبصارهم زاغت وامتلأت آذانهم بـالطنين مـن القيظ وتأثير الكهرباء الساكنة المتجمعة حتى فصل الصيف.

وقع ديما في حالة التراخي الـصيفي الغريـب عـن العمـل بحلـول نهاية شهر تموز، حيث تزحف الأيام ببطء مُضْنٍ، ويطير الوقت بـسرعة عصية على الإدراك.

في البدايـة اسـتلقى ديـما لعـدة أيـام عـلى الأريكـة، وراح يُقَلِّـب في القنوات التلفزيونية ذهاباً وإياباً من دون توقُّف، ليقف على إحداها، ثم

على أخرى... وبعدئذٍ يُقَلِّب من جديد. وعندما كان يُوَفَّق في العثور على فيلم قديم معروف من قبله منذ الطفولة، كان يُصفِّق براحتيه ويفرك يديه، ويُرتِّب عُشَّه، على الأريكة التي كانت قد أصبحت بمثابة عش له، ثم يهرول إلى المطبخ ليغلي الشاي ويُقَطِّع بسرعة الشطائر الأكثر ضرراً للصحة، والتي هي الألذ طعماً، فالأفلام القديمة والشطائر والشاي ذو السكر الزائد كانت تجلب له سعادة حقيقية عظيمة. لم يشعر بمثل هذا الشعور منذ زمن طويل. وفي هذه الحالة كان يشعر بالسكينة!

مع اليوم الثالث من هذه السكينة أصبح يفقد الإحساس بالوقت. كان يستغرق في النوم قبيل الصباح، ويستيقظ في ساعة متأخرة نهاراً. يستيقظ ويصغي إلى صخب القيظ القادم من فناء الدار. وعندما نفد كل شيء في البراد، صارع ديما الجوع ليوم كامل تقريباً. بدا له الخروج من البيت أمراً لا يُطاق، وظل مدة طويلة يؤجل ذلك.

لم يحلق ذقنه منذ فترة طويلة، لكن الحلاقة جلبت له فجأة الارتياح. بعدئذٍ اغتسل بتمهل بالغ وارتدى ملابسه، ثم ذهب بعد ذلك إلى السوبر ماركت... وهو يشعر بالارتياح. وتَبَضَّعَ أكواماً من كل شيء، وعندما عاد من السوبر ماركت، لم ينقضّ على الطعام، ولم يندفع إلى اختطاف لقمة من هنا ولقمة من هناك بعصبية، بل قام من جديد بسرور غير متوقع بتنظيف وترتيب الشقة، وجلا الأواني، ورَتَّبَ كل شيء بعناية في البراد. بعدئذٍ حضّر لنفسه على مهل طعام الغداء والعشاء في آنٍ معاً (بمعنى أن ديما لم يتناول طعام الغداء بعد، لكن

الوقت كان مساءً). أصدر الراديو صوتاً عذباً... فتح ديما زجاجة نبيذ، تطايرت في الرأس كلمات ما هادئة، كلمات غير متناسقة مثل: «ليس سيئة»، أو «نعم، هكذا..»، أو «هذا لي». وبينما كان الطعام يُشْوَى في الفرن، شرب ديما كأسين من النبيذ، وكان لهما أثر رائع على مزاجه. تناول جهاز الهاتف على الفور واتصل مع أهله، ثم اتصل بزوجته في الجنوب. قالت الزوجة: كل شيء جيد جداً، ولكن لم يحالفنا الحظ مع الطقس فقط. ثم أخذت الابنة السماعة وقالت: أنا أستجمُّ جيداً، وآكل جيداً، وبشكل عام كل شيء جيد. وردّاً على سؤال ديما عمّا إذا اشتاقت له، قالت الطفلة بسرعة: اشتقت.

بعد ذلك الاتصال مباشرة حاول أن يتصل بإحدى معارفه، ولم يُوَفَّقْ ، واستكان بشكل نهائي.

كان كل شيء جيداً، بل جيّدٌ جداً. كانت تخطر على باله فكرةٌ بشكل دوري: «يا، الأعمال متوقفة، كان يجب أن..» هنا كانت ترد الحجج مباشرة مثل: «تمهل، تمهل..» أو «أنسيت أننا في الصيف!».

الشيء الوحيد الذي كان يزعجه هو الحر، والأدقّ ليس الحر بحد ذاته، إنما، بمعنى أن الجو كان خانقاً، ويسبب التعرق... إلخ، وكان الحر مزعجاً لأنه ثابت لا يبرح...

في الصيف الماضي أمضى العطلة مع عائلته على شاطئ البلطيق. كان أصحابه يقولون له: إلى أين أنتم ذاهبون؟ الأمطار لا تنقطع هناك ، والبحر بارد. جميلٌ، لكنه باردٌ. ولكن الحظ حالفنا من جهة الطقس!

وهكذا كان ممتعاً أن تعرّض جسمك للشمس على الشاطئ أو أن تجلس تحت مظلة في مقهى وتشرب البيرة، وفي المساء تشاهد الأخبار، وتعرف أن الأمطار في مدينتك لا تكف عن الهطول، وأنّ ثمة عواصف في الجنوب، أما في اليونان فقد هطل البَرَد.

كم كان من الجيد والصحيح فيما لو كان الصيف داكناً وملبداً بالغيوم. عندئذٍ ما كانوا ليقولوا في التلفاز إن الماء في الأحواض الموجودة في الضواحي أدفأ من مياه البحر الأسود، وإن المسابح التي افتتحوها على شواطئ خزان المياه القريب لا تقل روعةً عن أفضل المسابح الأخرى المشابهة.

كانت تأتيه دعوات بشكل متكرر من الخارج... دعوات للسفر إلى دارة صيفية يقيم فيها أحد الأصدقاء، أو للذهاب مع أحدهم لصيد السمك. كان ديما يختلق أعذاراً مختلفة ولم يذهب إلى أي مكان، فالسكينة التي دهمته فجأة كانت أعمق، وأكثر قيمةً وأهم من أية نعمة من نعم الصيف. لكن لو هطلت أمطار مكفهرة، باردة، لكانت السكينة أعظم، و لكانت سكينة صافية كالبلّور!

كم يؤسفنا هذا الطقس المزعج دائماً! بقدر ما يذكر ديما كانت علاقاته المتبادلة مع الطقس دائماً مزعجة. في الأيام الأخيرة من شهر أيار، عندما كان من الصعب جداً إكمال التحضير للامتحان والتقدم إليه ، كان الطقس رائعاً. كان دائماً منعشاً، دافئاً، لكنه ليس حاراً... وكل شيء كان يُشْتَهَى. لكن ما إن كانت تبدأ العطلة حتى تبدأ

الأمطار، والريح، والزكام. وما إن تصل إلى البحر حتى يفاجئك على الفور تحذير من العاصفة البحرية مطر، ريح. وهكذا دائماً.

كان يتذكر كيف أمضى مرة نصف فترة الصيف عند عمته في الريف، ولم يذهب مرة واحدة إلى صيد السمك، على الرغم من أنه جلب معه صنارةً رائعة. كانت البحيرة قريبةً، لكن زوج عمته أخبره أنَّه سيذهب للصيد، إن لم تكن هناك ريح. لا يوجد أي معنى للذهاب إن كانت هناك ريح. قال العم فوفا[1]: «انظر، هل ترى تلك الشجرة، إذا كانت صباحاً ثابتة لا تتحرك فهذا يعني أنه لا يوجد ريح. خذ الصنارة، أيقظني، وكُلُّ السمك لنا. أما إذا كانت تهتز فإيَّاك أن تجرؤ وتقترب مني، سأستمر في النوم، ولن نذهب إلى أي صيد». بقي ديما ينظر إلى تلك الشجرة نصف فترة الصيف. كان يُخْرِجُ صنارته كل يوم، ينظر إليها فقط، ثم يعيدها إلى السقيفة. كان يحفر كل يوم تقريباً من أجل الدود وينظر إلى الشجرة. كانت الشجرة في المساء ثابتة دائماً لا تتحرك. وكان ديما ينهض في الليل للتبول، يخرج إلى مدخل الدار، وينظر من خلال ضوء القمر كيف يبدو رأس الشجرة الثابت قاتماً على خلفية النجوم الصيفية. وكان قلبه يكاد يتوقف عن الخفقان من الفرح، فيعود إلى سريره وينام، ويشرع يشهق بعمق ويزفر محدثاً ضجةً... أما في الصباح فكان يستيقظ قبل الجميع، يهرول إلى مدخل الدار... هناك، حيث كان يبدأ شروق الشمس، فإذا بالسحب الممطرة قد تجمعت، والشجرة تهتز من الأعلى وتهتز معها كل أوارقها. وكان ديما ينتظر لبعض الوقت ناظراً إلى الشجرة، ثم يكف قلبه بعد ذلك عن الخفقان. كان يتجمد

(١) فوفا: تصغير اسم فلاديمير (المترجم)

من البرد، ويبدأ المطر يهطل رذاذاً، فيذهب إلى سريره ويبكي بصوت خافت. بعد ذلك يستيقظ من النوم متأخراً، ويقضي ذاك اليوم قلقاً أحياناً وفرحاً أحياناً أخرى. لكن حتى هذا الوقت، عندما كان يخرج في الصباح باكراً إلى أي مكان فيه أشجار، كان ينظر دائماً إلى قمة أعلى شجرة موجودة، كان ينظر من دون هدف... فقط ينظر، كما في ذاك الوقت.

ثمة حَرّ، وهذا يعني صيفاً جيداً، وهو الأمر الوحيد الذي كان يعكر السكينة التي استولت على ديما، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يخلَّ بها أو يلغيها. في الأيام الأولى من شهر آب وافق على أن يلتقي في إحدى الأمسيات مع واحدة من معارفه. التقيا نحو الساعة التاسعة مساءً. كان الجو خانقاً، وبسبب هذا الجو بدأ رأسها يؤلمها، ذهبا إلى النافورة، كان هناك الكثير من الناس. المدينة تتنزه كلها بشكل جنوني، كانت الأرصفة والمقاهي على الضفتين والأماكن التي تحيط بالنافورة ممتلئةً عن بكرة أبيها. على مقربة من النافورة التقى ديما والمرأة التي معه مع بعض معارفه ومعارف زوجته. قَدَّمَ ديما مرافقته كزميلةٍ من مدينة أخرى، أتت لقضاء أعمال، ففتحت المرأة عينيها على سعتهما، ومرّ الأمر...

بعد ذلك هبت على المدينة عاصفة هوجاء وهطل مطر غزير. كان المطر غزيراً، وخلال نصف دقيقة كان قد فات الأوان للهروب إلى مكان يقي من البلل . طال البلل الجميع. كانت العاصفة قويةً جداً، وقصفُ الرعد يصمُّ الآذان. وباختصار، تأكد ديما أنه لا داعي للتحقق من صدقية شعوره بالسكينة. في اليوم التالي بقي الطقس رائعاً طيلة الوقت، ولم يخرج ديما من البيت.

السكينة! كانت تهيمن بقوة لدرجة أن ديما أحجم حتى عن شرب البيرة. لم يكن يشتهيها. كل شيء كان ساكناً. وكانت تخطر بباله أفكار غريبة ومسلية، تدور في رأسه ببطء ثم تذهب. بعد المطرة الغزيرة فَكَّرَ بتروٍ وتلذذ: «لو كنت متنبئاً جوياً لكنت قَدَّمْتُ دائماً حالة الطقس نفسها، هطولات في أماكن متفرقة، فهي الصيغة الأكثر ملاءمة وشمولاً. فإذا وقع المرء تحت المطر أو الثلج يفكر: آ... هذا من الأماكن التي فيها هطول، أما إذا لم يقع تحت المطر ولا تحت الثلج، فإنه يفكر: هذا من الأماكن الأخرى، وهذا كل شيء. وبكل بساطة».

كان ابنه يتصل بشكل دوري من مخيمه، وكان على ما يبدو راضياً. أما أهله فلم يكونوا يغادرون دارتهم الصيفية.

وعندما كان ديما ينجح في الاتصال بزوجته وابنته، لم يكن يسمع منهما سوى الكلمات المُطَمْئِنَة. طمأنينة وسكينة.

هطلت الأمطار لعدة أيام في بداية شهر آب. فرح ديما وقضى هذه الأيام في الحد الأقصى من السكينة. كانت الأمطار قويةً، دافئةً... ثم انقطع المطر وظهر الفطر. كان الأهل يتكلمون عبر الهاتف بشكل دائم حول ذلك، وحتى في التلفاز المحلي أذاعوا عن انتشار الفطر بكميات لم يسبق لها مثيل، وأوصوا بعدم جمع غير المعروف منه، وعدم شراء الفطر المُعَلَّب الذي لا يُعْرَفُ مصدر إنتاجه.

لم يذهب ديما إلى الغابة منذ زمن بعيد. وكان يحب جمع الفطر، ويستهويه السير في الغابة بخطوات متأنية والعثور فجأة على فطر ما بين

الأعشاب وأوراق الشجر والظلال المتشابكة، فمنذ لحظة فقط كان هذا الفطر يمتزج مع كل ما يُصْدِرُ حفيفاً وصريراً تحت القدمين، وفجأة.. هوب... هذا فطر! ولا تلبث أن تنحني ببطء وتركع على ركبتيك بجواره، وتتفحص ما حولك بانتباه...

كان ديما يحب هذا. لكن في هذه المرة انتصرت السكينة. وكانت الغلبة للحجج التي خطرت له، مثل: «وأين سنذهب بهذا الفطر؟»، «أنا أعرف بحر الفطر هذا!» و«نعم، الناس الآن في الغابة أكثر مما بالبازار في يوم البازار». بقي ديما في البيت وقرأ قصتين بوليسيتين ورواية نسائية، كان قد وجدها في الكومودينا بجانب سرير زوجته.

شعر ديما، بأنه سمن قليلاً في هذه الفترة التي قضاها دون عمل... ولكن ليس بشكل ملموس، بل بقدر ضئيل جداً.

يشارف شهر آب على النهاية، ومن المفترض أن تعود الزوجة والولدان قريباً. بقي الطقس على حاله جيداً، مع أنه لم يكن ممكناً الوثوق بأية توقعات. كان يمكن للصيف أن يتحول إلى الخريف في أية لحظة. يجب استغلال كل يوم ذي طقس جميل من الصيف الموشك على المغادرة. أما ديما فلم يستغله. فقد انغمس في السكينة. لم يحلق شعره مرة واحدة خلال فترة الصيف.

اتصل غوشا(١) قبل موعد وصول زوجة ديما وابنته من الجنوب بيوم واحد.

- آلو، مرحباً، - قال غوشا بتعجب عندما رفع ديما السماعة:

---

(١) غوشا: تصغير اسم غيورغي (المترجم)

أنت عُدتَ؟ أنا، اتصلت هكذا معتمداً على الحظ. إذاً، أنتَ أصبحتَ هنا. كيف استجممت؟

قال ديما متنهداً:

- أي استجمام هذا! أمضيت الصيف كله في المدينة، وهكذا سنستجم بشكل ما في مرة قادمة. وماذا عنك؟

تعجب غوشا بصدق وصراحة:

- أنت كنتَ هنا؟ - نحن كنا واثقين من أنك سافرت، لم يصلنا منك لا علم ولا خبر. أنا قد عدت منذ فترة طويلة.

- أين كنتَ؟

- أين كنتُ؟! لقد كنت ألومك وألعنك طوال الصيف «ألم تطن أذناك»[1]؟ استمعنا إليك وذهبنا إلى البلطيق. وقد غمرت الأمطار كل شيء هناك. ببساطة لم يمرّ يوم واحد ذو طقس جيد. هربنا من هناك. وكنتَ أنت في العام المنصرم قد أغدقت المديح على المنطقة...

- غوشا، غوشا! بمَ أذنبتُ أنا تجاهك، ماذا أقول لك؟ لم يحالفك الحظ...

قاطعه غوشا:

- وبالمقابل فإن الحظ دائماً يحالفك. يقولون أنَّ الطقس هنا بقي رائعاً طوال الوقت. كيف قضيت أوقاتك؟

---

(١) ألم تطن أذنك: تركيب بالعربية ورد بالروسية ألم تحزّق ويعني: كنا نتحدث عنك.

- نعم - م - م - م. كانت الأعمال كثيرة. هراء عادي. أرسلت الأسرة إلى البحر. يجب إخراج الأولاد من المدينة. وأنت، هل عدتَ منذ وقت طويل؟

- منذ عشرة أيام كدت أجنّ من الضجر. لا يوجد أحد، الجميع سافر، للأسف، إنني لم أعلم أنك هنا. منذ يومين عاد الكل دفعة واحدة، وهكذا لعبنا كرة القدم بالأمس. نظرتُ، لم تكن أنت موجوداً، فاعتقدت أنك لم ترجع بعد.

- ألعبتم بالأمس؟ مِنْ دوني؟ لماذا لم تتصلوا؟

- لم يكن أحد يعرف أنك هنا...

- إن كانوا يعرفون أو لا يعرفون، هل كان من الصعب عليكم، فقط، أن تتصلوا؟ لعبتم من دوني، لم يتصل بي أحد! على العموم هل يصح هذا؟!

قال غوشا بارتباك:

- نحن كنا نظن...

فقاطعه ديما:

- لا، أنتم في الحقيقة لم تظنوا شيئاً، بل ببساطة نسيتم، قل هذا، وانتهى. هل كان طلب الرقم صعباً؟

غضب ديما، وتأذى من ذلك. كانت مباريات كرة القدم هذه على ملعب المدرسة تعدُّ من الطقوس المهمَّة بالنسبة إليه، وذلك ليس لأنه

هو الذي شكَّلَ هذا الفريق يوماً ما، وليس لأنه ظل مدة طويلة يربي فيهم عادة إقامةِ مباريات أسبوعية، والذهاب إلى الحمام بعد المباراة، وتبادل الأحاديث المرحة، فهذا كله ليس جوهرياً، وإنما فقط لأنهم لعبوا من دونه، ولم يتصل به أحد. لا أحد! ولا أي شخص. أي أنهم استطاعوا أن يلعبوا من دونه، ولم يحدث أي شيء. أما غوشا هذا فقد اتصل مصادفةً في اليوم التالي بعد المباراة.

بعد ساعتين من اتصال غوشا اتصلت به واحدة من معارفه القدامى. استفسرت، هل يمكن لديما أن يتكلم أم لا، قاصدةً، هل زوجته موجودة بالقرب منه أم لا.

قال لها:

- نعم تكلمي، تكلمي، كل شيء على ما يرام.

حكت له، كيف سافرت بالطائرة على نحو رائع إلى إحدى الجزر، وكيف استمتعت هناك براحة كاملة، وأخبرته أنها جلبت له هديةً من هناك.

قالت:

- وعلى فكرة، ديماتشكا يستحق جسمي الذي لوَّحته الشمس أن تلقي عليه نظرةً. وأدرك ديما، أنها قد شربت قليلاً وجعلتها نشوة الخمرة تميل إلى المداعبة.

سألها:

- مع من سافرتِ؟

وكان الجواب:

- طبعاً، هذا أمر واضح، لم أكن وحدي.

كانت المرأة فعلاً من معارفه القدامى، ولكن ليس بمعنى أنها متقدمة في السن، وهو لم يرها منذ وقت طويل، وتعجب كثيراً لاتصالها. لكن ما خدشه هو عندما قالت: هذا«أمر واضح، لم أكن وحدي». هذه الكلمات لم تثر في نفسه الشعور بالغيرة ولا حتى بالضيق والأسف لأنه لم يزر تلك الجزر، لا! وإنما هذه الكلمات قد خدشت سكينته.

بعدئذٍ، وخلال فترة المساء، كان هناك اتصالان بخصوص العمل. لم يكن الاتصالان مخيفين ولا حتى جَدِّيين، لكن لم يكن لديه شيء ليقوله. لم يُشَغِّلْ ديما التلفاز طوال ذاك اليوم، ولم يفعل ذلك إلّا في وقت متأخر، عند النشرة المجملة للأخبار المسائية. كانت الأخبار غير سارة، والمقصود ليس أخبار الدول الأخرى، وإنما الأخبار المحلية. خلال نشرة الأخبار التي استغرقت خمس عشرة دقيقة كان يتأمل الوجوه المتوترة للموظفين وأعضاء البرلمان مطولاً، بحيث أصبح جلياً لديه أنهم يكذبون ولا يجري أي شيء جيد. تحدثوا قليلا عن الرياضة، وقد فات ديما أن يشاهد النشرة الجوية، لأن زوجته اتصلت به وذَكَّرَته برقم الرحلة ووقت الوصول.

في الليلة التي سبقت قدوم زوجته لم يتمكن ديما من أن ينام بشكل جيد. حاول كثيراً ولم يتمكن من أن يغفو. قام منذ الصباح بإضفاء مظهر الترتيب الشكلي على الشقة: مَرَّر المكنسة الكهربائية في أواسط

الغرف والمطبخ، ودسَّ الملابس في الزوايا و ... إلخ. بعدئذٍ ذهب إلى السوبر ماركت، اشترى بعض السلع والعصائر كي يكون لديه ما يقدّمه لعائلته القادمة من سفر.

كان القيام بهذه الأعمال يسبب له ألماً ومشقة. أجرى نحو عشرة اتصالات. الجميع عادوا من أماكن مختلفة، وأرادوا اللقاء، وتبادل الانطباعات.

عندما توجَّه ديما إلى المطار، لم تكن السيارة على خير ما يرام، فهو لم يجلس خلف المقود منذ فترة طويلة، وقد تسرَّب الغبار إلى جميع أجزاء السيارة وقلَّل من جودة أدائها.

الطقس كان جيداً: سماء زرقاء تبدو عالية جداً مع بعض الغيوم الصغيرة الواضحة المعالم. كما أن المدينة كانت ما تزال تعيش أيام الصيف بطمأنينة لا تشوبها شائبة على الإطلاق. وكانت النساء، كما في شهر حزيران، يرتدين القليل جداً من الملابس، أما ديما فقد كانت عيناه تتشبثان تارة بقوام إحداهن وتارة بقوام أخرى من السائرات في الشارع. قرب مبنى المطار كانت تُنَفَّذ أعمال طرقية، وقد علا دوي المداحل والآليات الأخرى. كان العمال الذين يعملون بالرفوش يرتدون زيهم البرتقالي مباشرة على أجساد عارية. كانت أجساد العمال تلمع من التعرق، وكان وهج الحر ورائحة الإسفلت الساخن تصفع وجه ديما من نافذة السيارة المفتوحة، ما جعله يتخيل للحظة أن الصيف قد بدأ للتو.

كان المطار يغصُّ بالناس، كثيرون منهم كانوا يغادرون عائدين إلى أماكن إقامتهم. وهناك من يودعهم. ولكن أكثر الناس كانوا عائدين من أماكن مختلفة، مسرعين لإعادة أبنائهم قبيل بداية العام الدراسي، وكان هناك من يستقبلهم. في عمق قاعة الوصول كانت الأبواب الزجاجية تُدخل القادمين رحلةً تلو الأخرى. كان العائدون مُسْمَرِّين، أسنانهم بيضاء، مسرورين. وكان مستقبلوهم يسرعون لاصطحابهم ويحملون الأطفال على الأيادي...

رأى ديما شخصاً من معارفه يقف لاستقبال أحد ما. كان هذا الرجل من معارفه القدامى ويسكن في منطقة بعيدة، ولذا لم يستطع ديما حتى أن يتذكر اسمه.

سأله الرجل: من تستقبل؟

- عائلتي... عائدون من البحر.

- وأنت أين كنتَ؟

- نعم - م - م! لَوَّحَ ديما بيده دون اهتمام - أمضيتُ كل الصيف قاعداً في المدينة! وأنت أين لوّحتك الشمس هكذا؟

قهقه الرجل وقال: أنا؟! –أنا على السطح. أمضينا الصيف أنا وابني نكمل بناء دارتنا الصيفية، وأرسلت زوجتي إلى الجنوب، والآن أستقبلها. كيف حالك أنتَ؟

- عن أي حال تتكلم؟ هاهو الصيف ينتهي، وأنا قابع في المدينة. على العموم لم يُتَح لي أن أستجمَّ.

- حسن، إلى اللقاء.

- آ ها، صحبتك السلامة!

وشدَّ كل منهما على يد الآخر. بعد خمس دقائق رأى ديما صاحبه وبيديه حقيبتان كبيرتان، كانت تمشي خلفه امرأة ممشوقة القوام ترتدي معطفاً فاتح اللون، وكان صاحبه يمشي مبتسماً بينه وبين نفسه.

فجأة أصبح ديما غير مرتاح، لأنه كَذَّبَ على الشخص الذي يعرفه معرفة سطحية. لماذا قال له إن أموره كانت سيئة في الصيف. لم تكن أموره في الصيف سيئة. ولماذا افترى هكذا على سكينته الصيفية. أجل، ربما لن يتكرر عنده مثل هذا الصيف الجميل أبداً.

تأخرت رحلات كثيرة لأسباب مختلفة. وتم تأخير الرحلة التي كان ينتظرها ديما، لمدة ساعتين. الذهاب إلى المدينة ثم العودة على الفور إلى المطار ليست فكرة صائبة. تضايق ديما، وراح يتجول، ثم أغفى في السيارة... بعدئذٍ أعلنوا أن الرحلة ستتأخر لساعة أخرى. هنا فترت همَّة ديما وخمد كلياً. فكَّرَ:«ها...، هذا آخر يوم في الصيف، وماذا؟».

اشترى صحيفةً، لكنه لم يستطع القراءة. لم يعد أي شيء يختلج في داخله ، وشعوره بالسكينة لم يغادره بعد.

اشتاق كثيراً لزوجته وابنته. اشتاق لابنه، الذي كان يجب أن يصل بعد يومين. اشتاق، لكنه كان يفكر في هذا وقد تهدل وجهه وانحنى رأسه قليلاً نحو اليسار. حتى أن ضجة المطار قد تراجعت إلى مكان ما...

استقبل عائلته. اختطف الطفلة ورفعها عالياً بين ذراعيه الممدودتين إلى آخر مدى. ثم قَبَّلَ زوجته. انتظروا الحقائب، كانت الابنة تتكلم من دون انقطاع، وكانت تُريهما شيئاً ما، حتى إنها رقصت. أخبرته الزوجة أنهما عانتا كثيراً بسبب هذا التأخير الفظيع. حاول ديما أن يستمع باهتمام... لكنه في الواقع كان يستمع إلى السكينة التي بداخله. كيف هي هناك؟ وهل ما زالت موجودةً؟

عندما اقتربوا من المدينة غفت الابنة على الكرسي الخلفي. نامت بوضعية لا يتصورها الإنسان الراشد، كانت الزوجة تُعَدِّد ما يجب عليها القيام به في اليوم التالي. كان واضحاً أنه عليهم أن يذهبوا في الصباح لشراء حذاء لابنتهما من أجل المدرسة وأشياء أخرى كثيرة. كان ديما يهز رأسه ويبتسم ويفَكِّر... لا، لم يكن يفكر، بل كان ينظر في عيني سكينته ويحاول أن يتذكر العينين اللتين من خلالهما كان في وقت ما ينظر إلى العالم ويشعر بالحبور. أراد أن يتذكر هاتين العينين في لحظة الوداع.

عندما اقتربوا من البيت، كان قد حَلَّ الظلام تقريباً.

قالت الزوجة: واو، يا لها من مقاعد طريفة قد وضعوها هنا، يا سلام! ما أبدعها!

نظر ديما، وفعلاً رأى مقاعد جديدة عند المدخل. متى يا ترى وضعوها؟ لم يلاحظها من قبل. ولكنه أجاب مباشرة: نعم، نحن هنا لم نهدر الوقت سدىً.

قَبَّلَ زوجتـه، بعدئـذٍ أخـرج ابنتـه مـن الـسيارة بتمهـل وعنايـة، وأخذت الزوجة حقيبتي الـسفر مـن صـندوق الـسيارة، ثـم توجَّهـا إلى المدخل. كانت الابنة قد تعرَّقت بالكامل خـلال نومهـا. ضَـمَّها ديـما إلى صـدره، وتـدلّى جسمها بالكامـل نحـو الأسـفل. كانـت ثقيلـة وكبـيرة، وكانت تنبعث من شعرها رائحة الشمس الحارة، والريح والبحر.

قال ديما لنفسه من دون أن يصدر صوتاً:

دافئة... - حبيبتي.

بينما كانت الزوجة تفتح باب المدخل، نظر ديما بـسرعة إلى الفنـاء، رفع عينيـه ونظـر إلى قمـة شـجرة القيقـب الـضخمة التـي تعالـت فـوق أشجار البتولا والغبيراء، كانت شجرة القيقب عاليةً... عالية.

على خلفية السماء التي أظلمت كلياً تقريباً، كانت شـجرة القيقـب تُرى واقفة من دون أي اهتزاز. غمزها ديما بعينه، ثم أدار وجهه واجتاز المدخل وهو بالكاد يبتسم مودّعاً....

الغشاوة[1]

- كولا[2]، لِمَ أنت مضطرب هكذا؟! لا تخف!

- هل تريد مقاتلته حقاً ؟ قد يكون ملاكماً.

- ولِمَ أنت قلق؟ وماذا في ذلك؟ فإمّا أن يحطّم وجهي أو أشوّه سحنته.

من الأفضل أن نشرب.

- سيميونيتش[3]، يكفيك شرباً، لا تشرب أكثر ...

- كولا! أنت تعرف أنه لا فائدة من القول لي: «لا تشرب، يكفيك شربا».

هيّا، أحضر لنا المزيد من الويسكي، ومئة غرام لكل منا كي لا تذهب مهرولاً مرتين.

---

(١) العنوان الأصلي للقصة هو «القدّة» وارتأيت تغيير العنوان ليصبح «الغشاوة» (المترجم).

(٢) كولا: تصغير اسم نيكولاي (المترجم).

(٣) سيميونيتش: صيغة مشتقة من اسم أبي المخاطب / سيميون /؛ والروس يخاطبون بعضهم بعضاً أحياناً بكناهم «أي بنسبتهم إلى آبائهم» تحبباً؛ والصيغة الأصلية للكلمة: «سيميونوفتش» (المترجم).

- طيب، إذا أردت أن أُحضِر المشروب فسأحضره. ولكن أتريد الذهاب للمشاجرة حقاً؟ فَكِّرْ بعقلك. هل تريد الذهاب للمشاجرة مع هذا الصبي؟ مع هذا الجرو السكران؟

- ومَنْ أنا؟ أنا كلب سكران. وانتهى. ما بالك مضطرباً يا كولا!؟ حسن، سيسحق وجهي أنا وليس وجهك.

- لا سيميونيتش!، لن يحصل هذا! وهل سأقف أنا متفرجاً وأنظر فحسب؟ وعلى أية حال، كيف تتصور ما سيحدث؟

- إنني لا أتصور ما سيحدث بأي شكل... ولا بشكل! وبالنسبة لي لا فرق، ويمكن أن تكون المشاجرة هنا مباشرة، ويمكن أن تنتقل إلى دورة المياه.

- ولكن، انظر، كم عدد رجال الشرطة هنا! الأمن ...

- عندئذٍ في دورة المياه... بالنسبة لي على مؤخرتي! سنذهب إلى دورة المياه. ثم هل سنتقاتل خمس جولات، أم ماذا؟ لكمة، لكمتان، وانتهى. أنت تعرف بنفسك.

- هل جُننت؟! أكيد، جننت! وما حاجتك لذلك؟ سأذهب الآن مباشرة وأدعو ذلك الملازم، وسأقول له: إن ذاك الصبي في حالة سكر، ويريد التهجم على رجل محترم ...

- عندئذٍ، سأعاقبك يا كولا، فهمت...

- أُرَحِّبُ بهذا! بعد أن نصل إلى البيت و ...

- لا تفكّر أن تفعل ذلك! أما نزال جالسين؟ أليس كل شيء هادئاً؟، إذاً دعنا جالسين. ولاحقاً سنرى ماذا نفعل. ثم إنه ربما يكون هو نفسه شرطياً. من الأفضل أن تُحضِر لنا قليلاً من الويسكي أيضاً. ليس من باب الأمر، بل من باب الرجاء. هيا، يا كولا! أحضر مئة غرام لكل منا وبعض الشوكولا.

ذهب نيكولاي نيكولايفيتش إلى البوفيه. وبقي إيغور سيميونوفيتش جالساً على الطاولة لمدة ساعتين تقريباً، وكانت مغطاة بأكواب بلاستيكية فارغة. خلال هذا الوقت كان كل منهما قد شرب ثلاثمئة غرام من الويسكي، وبدقة أكثر، شرب إيغور سيميونوفيتش ثلاثمئة وخمسين غراماً، أما نيكولاي نيكولايفيتش فشرب أقل بمئة غرام. ولم تكن المرة الأولى أو المشروب الأول في هذا المساء.

نظر إيغور سيميونوفيتش إلى يديه اللتين وضعهما على الطاولة، كانتا كبيرتين، منتفختين، وجافتين. الأصابع سميكة ومرنة، الأظافر مقصوصة وقصيرة جداً. ضمَّ يده اليسرى على شكل قبضة وبدت قبضةً جدّية. كان على معصمه ندب واضح مع بقايا وشمٍ قديم مُنَفَّذ بطريقة غير ناجحة، بقايا كلمة«إيغور». ومنذ زمن طويل، حاول إيغور سيميونوفيتش إزالة هذا الوشم ببرمنغنات البوتاسيوم فَخَلَّفَ ذلك ندباً واضحاً، ولذلك بدت قبضته رهيبةً للغاية.

فتح قبضة اليد اليسرى وضمَّ قبضته اليمنى، عندها ظهرت آثار المشاجرات القديمة - ندوب صغيرة بيضاء على العظيمات الدائرية

لهذه القبضة، كان وقتها يضرب بقبضته أسنان خصمه فيحطمها أحياناً، وتُجْرَحُ قبضته فيخرج منها الدم غزيراً. عندها لم يكن يشعر بأي ألم إلّا بعد الشجار. لكن إيغور سيميونوفيتش لم يتعارك مع أحد منذ فترة طويلة. وهو لم يتلقَّ منذ زمن بعيد لكمات على وجهه. منذ ثلاثين عاماً كان يتعارك في كثير من الأحيان، وكان يستحيل عليه أن يبقى من دون مشاجرات.

قال نيكولاي نيكولايفيتش، وهو عائد إلى الطاولة، وبيده كوبان بلاستيكيان وشوكولا:

- سيميونوفيتش، سيميونوفيتش، أرخِ قبضتك.

صحا إيغور سيميونوفيتش وسأل:

- ماذا؟

قال نيكولاي نيكولايفيتش وهو يجلس: أرخِ مطرقتك هذه، لنشرب بأسرع ما يمكن، لنذهب ونصعد إلى الطائرة. ما بك، ألم تسمع شيئاً؟ وأخيراً، أعلنوا عن رحلتنا والحمد لله! حُسِم كل شيء تلقائياً، هيّا يا سيميونيتش إلى الطائرة. وليبقَ خصمك جالساً هنا. هو مسافر إلى نوريلسك[1]، سيؤخرونهم حتى الخامسة صباحاً بسبب الظروف الجوية. خلال هذا الوقت سيجد لنفسه مغامرات أخرى. أيُّ شمالي[2] هذا! إنه لن يغادر اليوم من هنا ببساطة. لقد اشتبك هناك مع شخص

---

(١) نوريلسك: مدينة تقع في إقليم كراسنادار في الشمال الروسي.

(٢) شمالي: أي أنه لا يتسم بِشيَم أبناء الشمال (المترجم).

آخر، لذلك سوف يحصل على نصيبه. وكيف لم تأخذه الشرطة حتى الآن؟! ربما هو بالفعل شرطي. على العموم، هناك شَبَه...

قال إيغور سيميونوفيتش بصوت أجشّ حاملاً كأسه:

- لنشرب، كولا، لنشرب.

قال نيكولاي نيكولايفيتش:

- نخب من نشرب؟

- لا أعرف. نخبنا نحن. نخب أن نصل بشكل طبيعي. نخب التوفيق. لنشرب نخب الصحة. هل تريد أن نشرب نخبك؟

- ولماذا نخبي؟ هزَّ نيكولاي نيكولايفيتش بكتفيه. لنشرب نخب أن نصل بسلام.

- هيّا!

أفرغا كأسيهما دفعةً واحدة. حتى إن إيغور سيميونوفيتش لم يحسَّ بطعم الخمر،أما نيكولاي نيكولايفيتش فقد تجعدت ملامح وجهه، وأصابته قشعريرة، وبدأ بحركات متشنجة ينزع الغلاف عن قطعة الشوكولا.

كان هذا هو اليوم الثالث الذي يشرب فيه إيغور سيميونوفيتش، وكان يعرف أن ذلك ليس نهاية المطاف، لأن التوتر لم يفارقه، وعلى الرغم من كمية الكحول المستهلكة لم يفقد وعيه. كان يعي أنه في موسكو لن يستطيع الإفلات من التوتر. وعلى الرغم من أنه لم يعد

بمقدوره التحكم بقدميه وشفتيه تماماً، لكن عينيه كانتا تريان كل شيء كما هو. ودماغه يدرك الأشياء كما هي في الواقع. وقلبه ... كان يأمل أن يطير من موسكو، وسيكون قادراً في المنزل على إخراج ما في صدره، وفي قلبه ودماغه وعينيه... وإطفاء كل شيء مباشرة. كان ينتظر ويأمل أن يُنسيه الكحول ويُذْهِبَ ما أصابه من جروح في صدره ورأسه وعينيه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. ستلتئم الجراح وتحل الطمأنينة، أو على الأقل، النسيان في سَوْرَة السُّكر، أو حتى أشدّ آلام المبالغة في الشرب، على أن يزول هذا الشعور الذي ينتابه الآن!

وهنا، عَلِقَ به هذا الصبي شبه الرياضي، شبه المجرم، شبه الشرطي، بشفتيه المبتسمتين المزبدَتينِ باللعاب، وببذلته الرياضية، ووَجَّه له كلمات بذيئة آذته، كان يعرفها إيغور سيميونوفيتش في الماضي البعيد، وتوعده بتحطيم وجهه...

لم ينعت أحدٌ إيغور بهذه الصفات منذ فترة طويلة، ولم يحاول أحد منذ أمد بعيد أن يلطمه على وجهه. ما كانَ خائفاً أو غاضباً، لأن أحداً لم يكن يستطيع أن يلحق به ألماً أكثر مما لديه. وكان مستعداً بكل جدية لاحتمال حدوث أية مشاجرة، والتفكير في هذا الاحتمال بجدّية وتروٍ. الأمر الوحيد الذي شَعَرَ حياله بالأسف هو أنه لم يكن غاضباً، ولم يكن قادراً على أن يثير الغضب في نفسه بنفسه، كما يفعل الكثيرون في حالة السكر، ولهذا، فإنه عندما تنقبض كفاه، كان يفكّر ببساطة، كيف يمكن استخدامها؟ والأهم من ذلك، هل سيخفف هذا من ألمه؟

تذكّرَ، وتذكّر بوضوح، كيف يختفي الألم كله في أثناء المشاجرة الحقيقية، إذ يصبح الألم عندئذٍ غير محسوس. ولا يحدث ذلك إلاّ عندما تكون المشاجرة حقيقية. لأنك عندما تُضرَب تحسُّ بالألم، أي لا تحسُّ بالألم عندما تتشاجر، بل عندما تُضرب. وإيغور سيميونوفيتش خَبِرَ كلتا الحالتين.

- حسن، سيميونيتش، لنذهب. جلسنا بما فيه الكفاية، هيّا...
- اجلس، كولا. يمكننا الجلوس خمس عشرة دقيقة أخرى باطمئنان. لن يطيروا من دوننا.
- وما الداعي للجلوس؟ أنا لن أشرب أكثر، ولن أسمح لك بذلك.
- وما الداعي للمزاحمة هناك؟ دع الناس يمرّوا بهدوء إلى البوابة. سنكون آخر مَنْ يذهب. لماذا أنت منزعج؟!
- لا، سيميونيتش، أنا لن آتي معك ثانيةً إلى موسكو. إما أن آتي وحيداً أو لن آتي أبداً. لا أستطيع أن أشرب بهذا القدر وأنام قليلاً هكذا.
- كولا، أنا لن آتي ثانيةً إلى موسكو، لا معك، ولا مع غيرك... انتهى! يكفي!...

إيغور سيميونوفيتش ونيكولاي نيكولايفيتش يستعدان للعودة بالطائرة إلى مدينة بيرم حيث يقيمان. كانا قد وصلا إلى موسكو صباح الاثنين، على أن يعودا إلى بيرم مساء الأربعاء، لكنهما تأخّرا حتى

يـوم الجمعـة. بتعبـير أدق، قـرَّر إيغـور سـيميونوفيتش أن يتـأخّر، ولم يسمح لنيكولاي نيكولايفيتش، نائبه، ومساعده ورفيقه، بـأن يـذهب، وأبقاه معه.

ليلـةَ الجمعـة جـاءا في موعـد رحلـتهما، ولكـن الرحلـة تـأخّرت ساعتين كاملتين. وفي النهاية تمكّنا من الرجوع آخر أيام صقيع كـانون الثاني في موسكو إلى جبال الأورال الأكثر صقيعاً.

كـان إيغـور سـيميونوفيتش راضـياً جـداً يـوم الثلاثـاء نهـاراً، إذ استطاع تحقيق ما أراد. وأخـيراً، وقَّـعَ أصـحاب المـشروع الموسـكوفيون كل الوثـائق، وقبلـوا جميـع الـشروط الرئيـسية تقريبـاً التـي أصرّ عليهـا. يملك إيغور سـيميونوفيتش شركـة بنـاء ليـست كبـيرة ويـديرها، لكنهـا ليست صغيرة جداً. يبني طـوال حياتـه. بنـى منـزلاً مـع والـده وإخوتـه عندما كان صبياً. وفي الخدمـة العـسكرية كـان يبنـي. ثـم درس الهندسـة المدنيـة وراح يبنـي ويبنـي ويبنـي. والآن، يجـب عليـه بنـاء مخـازن كبـيرة ومستودعات السكك الحديدية. كان هـذا بالنـسبة إليـه مـشروعاً مهـماً. ولقد تقـدمت لهـذا المـشروع أكثـر مـن شركـة بنـاء في بـيرم، لكـن إيغـور سيميونوفيتش سبقها جميعاً، ودفـع رشـاوى وأقنـع أصـحاب المـشروع، وفي يوم الثلاثاء عقد الصفقة نهاراً، وفي المساء من اليوم نفسه قـرروا أن يحتفلوا بهذا القرار المهمّ. و في يـوم الأربعـاء أراد إيغـور سـيميونوفيتش إنهاء بعض الأمور البسيطة، والعودة إلى المنزل.

لكن...

قال إيغور سيميونوفيتش وهو ينهض:

- كولا، سأشرب أيضاً جرعة إضافية تسندني في الطريق.

قال نيكولاي نيكولا يفيتش، وهو ينهض أيضاً:

- سيميونيتش، أنت عادة لا تشرب عكّازات طريق.

- عندما لا أشرب عكازات طريق يحاولون إفراغ الكأس في حلقي، أما الآن فأنا بنفسي أريد وسأشرب. قال هذا، ولبس معطفه الجلدي الكبير الثقيل المبطّن بالفرو. - ويا كولا! حسن، لا تحاول إقناعي. ما بك تتصرف كالأطفال؟!

- ذاك الصبي يعربد هناك في البوفيه. مرة أخرى يتحرش بالناس. لماذا تحاول افتعال المشاكل، سيميونيتش؟ وما يدعوك لهذا؟ أنت الذي تتصرف كالأطفال، أنا لا أعرف ... عمرك نصف قرن، وتريد الذهاب إليه.

- كولا، لا تَنْسُبْ عمرك أنت إليّ. أنت عمرك نصف قرن، أما أنا فأقل من ذلك. لهذا سأشرب خمسين غراماً نخب عمرك نصف القرن.

- وأنا معك...

- لا قال إيغور سيميونوفيتش، واعتمر قبعته مائلة إلى قفاه وتابعَ:

- أنت احرس الأشياء. سأعود الآن. ويجب عليك ألّا تشرب أكثر، وإلا لن يسمحوا بدخولنا الطائرة. ثم توجّه نحو البوفيه.

ذهب ورأى ذاك الشاب الذي عَلِقَ به خلال الساعتين الأخيرتين بشكل دوري. كان واقفاً بالقرب من منصة البوفيه وظهره لإيغور سيميونوفيتش، ويتكلم بصوت عالٍ متوجهاً إلى رجلين يضعان نظارات، ويرتديان معطفين طويلين. حاول هذان ألاّ ينظرا في وجهه. خامر إيغور سيميونوفيتش شعور غريب لم يشهده منذ شبابه. ضحك لهذا الشعور. وقد ذكَّره ذلك بشبابه، وحتى بالمدرسة. تَذَكَّرَ تلك الرجفة الداخلية مع طنين في الأذنين، وهو ما كان يعتريه دائماً قبل العِراك.

كان التلاميذ في المدرسة يعرفون مسبقاً أن شجاراً سيقع، الأمور تتفاقم قبل بضعة أيام حتى تنضج. وكانوا يُعِدُّون لها حتى لحظة وقوعها.

كان أحد ما يقول: «إيغاريوك، هل تعلم، ماذا قال عنك توليان؟» أو «هل تعلم أن توليان قد بصق على محفظتك». غالباً ما يسبق المشاجرة مناوشة قصيرة أو سجال لفظي في الصباح في المشلح (مكان خلع المعاطف) أو خلال فترة الاستراحة على الدرج. بعد هذا ينتظر الكل المشاجرة ذاتها. يتشاجرون دائماً بعد المدرسة واحداً لواحد، خلف زاوية الطريق البعيدة عنها. وإيغور سيميونوفيتش يتشاجر كثيراً في المدرسة. هو أكبر وأقوى واحدٍ بين زملائه في الصف. لذلك كان يسعى زملاؤه لدفعه للمشاجرة مع تلامذة آخرين من ذوي البنية القوية. ثم يأتي الكثيرون لمشاهدتها، وأخبارها كان يعرفها الجميع.

قبل درسين من المشاجرة المتوقعة، التي يكون الخبر عنها قد شاع، تنتابه الرجفة، ولا تدعه يُركِّز على موضوع الدرس. وبغض النظر عن ذلك لم يكن إيغور سيميونوفيتش يدرس بالشكل الأمثل. إلّا أنه، كان يبلي في العراك بشكل جيد، على الرغم من أنه يُضرب أحياناً.

يجهّز للمشاجرة المدرسيّة طويلاً، ولكنها كانت تنتهي دائماً بسرعة كبيرة. خلال ثوان معدودة ويصبح كل شيء واضحاً. في كل الأحوال، في غضون دقيقة كان شخص ينتصر، وآخر يخسر. أو يوقف أحد المعلمين العراك، وإذا ثرثرت الفتيات عن عراك سيحدث بالقرب من المدرسة هرب الجميع، وتأجل ذلك إلى يوم آخر.

كان أسوأ ما يمكن هو الذهاب إلى المشاجرة. لم يكن يحب إيغور سيميونوفيتش نبضات القلب والرجفات التي ترافقه، عندما ينزل إلى أسفل درج المدرسة بعد الدرس الأخير، أي عندما كان يذهب إلى المشاجرة، لم يكن يخاف، فقط قلبه يخفق، وشيء ما يطنُّ في أذنيه، وتنتابه رجفة في داخله. لم يكن يحب المناقشات الأخيرة لشروط المشاجرة، على سبيل المثال، في هذه المرة سيتشاجران حتى ظهور الدم، والكلمات الأخيرة المزعجة التي كانت ضرورية لبداية المشاجرة، كان هو يصمت عنها عادة، لكنه يحاول أن يكون البادئ بالضرب.

قبل ثانية واحدة من الضربة الأولى يشعر أن شيئاً ما يتمزق في الداخل، شيئاً ما يجري كأنّه غشاوة غير مرئية تسقط، وكان سقوطها يوقف القلق وخفقان القلب والألم على الفور. كل شيء يتغير: في

العينين، الرؤية تصبح أكثر حدة مرات عدة ، وتزداد سرعة التفاعل، وتزداد القوة في يديه، لتصل إلى كل أنحاء جسمه، كان ذاك الشعور يعجبه، وعندئذٍ يفوز بسرعة ومن دون جدال. لم تكن لديه ولا عند خصومه معرفة بفنون القتال، فقط يوجه اللكمات إلى الوجه بقدر ما يستطيع من القوة والسرعة.

لكن عندما لا تسقط هذه الغشاوة. لسبب ما لا تسقط، إما لأن الحقد لم يكن كافياً، أو لأن الاضطراب كان فائضاً. عندها إيغور يُكْسَرُ (يُغْلَب) حتى من قبل خصم أضعف منه.

واصل إيغور سيميونوفيتش مشاجراته خلال فترة شبابه ولا سيما في حفلات الرقص. إذ كانت تندلع بسرعة، وتسقط الغشاوة بسهولة ودون تحضير. وبحلول ذاك الوقت زادت مهارات القتال لديه، وظهرت عنده أساليب خاصة به. على الرغم من أن كل شيء يجري بسرعة كالسابق. والنهاية انتصار واضح، أو يفصل الناس بين المتشاجِرَيْن، وهما مستمران بالسباب وإطلاق التهديدات الرهيبة، وسط زعيق صديقتيهما.

قليلاً ما كانت تحدث المشاجرات الجماعية في بلدتهم الصغيرة والتي تبعد مئة كيلومتر عن بيرم. هذه المشاجرات تتميز بالقسوة التي لا معنى لها. تفتقد الجمالية في فنون القتال ، ولا تخلو من خطر حقيقي يتمثّل في الطعن بالسكاكين. كان إيغور سيميونوفيتش يحاول ألّا يشارك في مثل هذه المشاجرات.

في الجيش، كل شيء مختلف، وكان إمّا مضروباً أو ضارباً. لكن بعد الجيش، عندما أصبح طالباً وأقام في المسكن الجامعي، الذي لم يكن يقع في أهدأ وأفضل منطقة في مدينة بيرم، كان أحياناً يشتبك في مشاجرات. عندها بدأت تظهر مهارات أخرى لدى إيغور سيميونوفيتش. مهارات الخروج من المشاجرة. إلّا أنه عندما تسقط الغشاوة فإن قبضتيه كانتا تنكمشان بسرعة البرق، و ...

قبل عشر سنوات، أقدم على ضرب ابنه الأكبر.عاد ابنه إلى المنزل عند الفجر في حالة سكر واضح. كان عمره ستة عشر عاماً. إيغور سيميونوفيتش وزوجته لم يناما، وانتظراه. أما هو فقد أتى، ومن العتبة بدأ يقولُ كلاماً مُبهماً، ويُلَوِّحُ بيديه. سقطت الغشاوة. ضرب إيغور سيميونوفيتش ابنه براحة يده على شفتيه. ضربه بقوة، ولكنه لم يكن يتوقع أن الضربة ستكون قوية جداً. طار ابنه إلى الجدار، امتلأت شفتاه بالدم. وإلى هذا الوقت لم يستطع إيغور سيميونوفيتش أن ينسى خوفه الشديد، ولا عيني ابنه الأكبر والمحبب، والذي أصبح بالفعل كبيراً، طويل القامة مثل والده، ولا كيف بكى يومها هذا الشاب الكبير، وأراد أن يهرب من المنزل، أو كيف أمسكا به وراحت والدته تنتحب. لم يتمكن إيغور سيميونوفيتش من نسيان هذا، وكان يخشى ألاّ يتمكن ابنه من النسيان أيضاً.

إيغور سيميونوفيتش يعرف أنه مهما كان الشاب قوياً ورياضياً يبقى الرجل أقوى منه. يتذكّر كيف يلعبون عندما كانوا صبياناً مع

الرجال في كرة القدم. الأولاد يركضون أسرع وكانوا أخف حركةً وأكثر رشاقةً، لكن الرجال أكثر صلابةً وقوةً. كانوا يتألمون حتى عندما يركلون الرجال، إذ من الممكن أن تُكْسَر أصابع أرجلهم. كان من الأفضل لهم عدم الاصطدام بهم في أثناء الركض، فالرجال أجسامهم صلبة، وعظامهم متحجرة... ولديهم قوة أخرى تختلف عن القوه الموجودة لدى الفتيان والشباب.

يتذكرّ إيغور سيميونوفيتش أنه عندما عاد من الجيش، كان بصحة جيدة وعضلات شبابية ... كان رياضياً. والد إيغور، لم يتميز بطول القامة، وقوة العضلات، وكبر اليدين، على العكس من ذلك، كان نحيفاً وهزيلاً ومحدوب الظهر. ومع ذلك يقطع الخشب بشكل أقوى وأكثر صبراً من إيغور. وفي أول بناء له كان إيغور سيميونوفيتش قد تأكد من أن الرجال حتى الهزيلين المنهكين، والذين لا يدل شكلهم على أنهم أقوياء، إذا أرادوا، وكانت لديهم رغبة فإنهم يكونون قادرين على رفع أشياء لا يستطيع هو رفعها، وعلى العمل بجد ولمدة أطول من دون استراحة أو توقف عن العمل للتدخين.

منذ ذلك الحين، بعد أن ضرب إيغور سيميونوفيتش ابنه، لم يعد يضرب أحداً. وإذا سقطت الغشاوة، التي كانت تسقط بشكل دوري، كان يتخذ قرارات سريعة وصارمة، وليست دائماً صحيحة. ولكنه لم يكن بعد ذلك يتنصَّل من مثل هذه القرارات، ويحرص على ألَّا يندم عليها.

اقترب إيغور من البوفيه. ولم يلحظه الشاب المشاكس الذي في حالة سكر.

قال إيغور سيميونوفيتش مشيراً بإصبعه إلى الزجاجة المطلوبة:

- أعطني من هذا الويسكي خمسين غراماً، ولا أريد أي شيء آخر. ما ثمنها؟

بينما كانت عاملة البوفيه تسكب الويسكي، وتحسب باقي النقود، نظر إيغور سيميونوفيتش إلى الشاب الذي يقف وظهره إليه. كان الشاب قوياً، يناهز الخامسة والعشرين من العمر، ربما أكثر من ذلك، إذ من الصعب تحديد عمره.

قال الشاب بصوت منخفض ورتيب، وبدا واضحاً أنه يتمتم هنا على هذا النحو منذ فترة طويلة:

- في نوريلسك أمثال هؤلاء المأفونين الشاذين الشباب يخمدونهم على الفور، شرمو...! أنتم شياطين منتهون. لماذا تنظر هكذا؟

تغاضى الرجلان اللذان يرتديان معطفين ويضعان نظارتين عما قاله. لكنهما، كانا ينظران إليه بحذر. ربما كانا أجنبيين. ومع ذلك، كان من المستغرب أن الشرطة لم تأخذه بعد، ولم يلفت أحد انتباه الشرطة إلى سلوكه الأرعن.

أخذ إيغور سيميونوفيتش الويسكي وشربه دفعةً واحدة من دون أن يخرج من البوفيه.

- هـ.. هـ..! ومن سمح لك بالاقتراب من هنا؟! - عرف إيغور سيميونوفيتش أن الكلام مُوَجَّهٌ له. - أين اختبأتَ أيُّها الفزاعة؟ أنت تسمعني، لا؟

توجهت عاملة البوفيه إلى الشاب قائلةً:

- اهدأ، إيه!. - انظروا مِنْ أين أتانا هذا! إنه يبربر ويبربر هنا ...

- أيتها الأم! سامحيني، من فضلك، دعيني أحكِ مع هذا الإنسان! أنتِ تَرَيْن أيَّ فَزَّاعة تمشي هنا، - سمع إيغور سيميونوفيتش هذه الكلمات وهو يستدير ويبتعد.

- إيه، إلى أين أنتَ؟ لنذهب ونتحدث! إلى أين ذاهب؟ اسمع، أنت يا غندور.! ورداؤك أيضاً مغندر ...

قالت عاملة البوفيه:

- أهناك من أحد يُهَدِّئه أم لا؟ هل يوجد رجال هنا؟

شعر إيغور سيميونوفيتش أنه إذا تحرَّش هذا الشاب به فإنه في هذه المرة لن يستطيع تمالك نفسه. أصبحت الغشاوة مُعَلَّقَةً على شعرةٍ. إيغور سيميونوفيتش لم يُرِد منع الغشاوة من السقوط، بل على العكس تماماً، لم يكن على الإطلاق يريد إبقاءها مُعلَّقة.

في يوم الثلاثاء، بعد توقيع العقد بنجاح، ذهب إيغور سيميونوفيتش ونيكولاي نيكولايفيتش مع أصحاب المشروع الموسكوفيين إلى المطعم. كان هؤلاء في سن الشباب، وأعمارهم جميعاً تحت الأربعين عاماً، وجميعهم يتمتعون بالحيوية والنشاط، والميل

إلى الضحك. لم يكن إيغور يرغب كثيراً في الذهاب إلى المطعم مع أناس معرفته بهم قليلة. على العكس كانت لديه رغبة في الذهاب إلى مكان أبسط، وفي الشرب، لم يكن يستطيع أن يشرب مع فريق من رجال أعمال لا يعرفهم. لكن العشاء كان جزءاً إلزامياً من البرنامج، ولهذا ذهب.

لا نستطيع أن نقول إن إيغور سيميونوفيتش لم يكن يحب الذهاب إلى المطاعم. فقد اعتاد ارتيادها في السنوات الأخيرة. كان يروق له، وخاصة في الخارج أو في الجنوب، الجلوس في المطعم وتناول الطعام، أو الجلوس في البار وتناول المشروب. يفعل ذلك، عندما يذهب لقضاء العطلة أو عندما يزور معارض البناء. أغلب الأحيان، كان يزور معارض البناء في ألمانيا، يشاهد المواد الجديدة أو معدات البناء الجديدة. وهكذا أصبح يعرف، كيف ولماذا يذهبون إلى المطعم؟ وحتى في بيرم، هناك مكانان محببان لديه.

لكن خلال رحلاته القصيرة إلى موسكو يفضِّل أن يشرب، وعندئذٍ كان ينجذب إلى الرومانسية، وإيجاد الرومانسية في موسكو لم يكن صعباً. يحاول في بيرم ألّا يسمح لنفسه بهذا، أما في ألمانيا فلم تكن هناك رومانسية على الإطلاق.

لذلك، لم تكن لديه رغبة في الذهاب إلى المطعم ليأكل أو يتحدث مع آخرين لفترة طويلة، لكن العشاء كان ممتعاً ومرحاً على خلاف ما كان يتوقع.

أولاً، لأن الشباب أصحاب المشروع لم يأخذوهما إلى مطعم عصري ومتحذلق بأطباقه الفاخرة، ومفارش موائده ذات الألوان الفاتحة حيث الحديث يجري بأصوات خافتة؛ بل اختاروا، على العكس من ذلك، مطعماً كبيراً وصاخباً في شارع«أربات» الجديد، حيث شرب الجميع البيرة، وتناولوا الطعام المناسب معها، وحتى في يوم الثلاثاء كان هناك الكثير من الناس.

ثانياً، تبيَّن له أن الشباب أصحاب المشروع أُناسٌ بسطاءُ مرحون، فقد شربوا بيرة، وبعدها فودكا. ونحو الساعة العاشرة مساءً أصبح العشاء يقترب تدريجياً من نهايته، وشرع الشباب الموسكوفيون يستعدون للذهاب إلى منازلهم. أما إيغور سيميونوفيتش فلم يكن في عجلة من أمره للذهاب إلى الفندق. كان مزاجه رائعاً، وإلى جانب ذلك، شربوا خلال فترة العشاء قدراً من المشروب، بحيث أرادوا تماماً أن يشربوا على الأقل الكمية نفسها. في النهاية، ذهب جميع أصحاب المشروع إلا واحداً. وبقي على الطاولة إيغور سيميونوفيتش ونيكولاي نيكولايفيتش، ودينيس. كان دينيس وإيغور. يتحدثان بمتعة ويقهقهان، أما نيكولاي نيكولايفيتش فبدأ يغفو.هنا دخلت إلى المطعم مجموعة كبيرة، سبعة أشخاص. كانت المجموعة من الجنسين، ومختلفة الأعمار، وصاخبة جداً. بينهم امرأتان تحملان الزهور. حملت إحداهن طاقة، أما الأخرى فاحتضنت غَمراً بكلتا يديها.

قال دينيس بصوت عالٍ عندما رآهم يدخلون:

- أوه، أوه، أوه! – عذراً إيغور سيميونوفيتش، هؤلاء معارفي، سأترككما للحظة.

ذهب دينيس للمصافحة. صافح الجميع. حتى إنه تعانق مع أحد الرجال، أخذ الزهور من السيدة التي كان معها الغَمر، وأعطاها للنادل الذي أخذها على الفور إلى مكان ما. قَبَّلَ دينيس يدَ السيدة، ثم قَبَّلَ يدَ السيدة الأخرى، وكانوا قد أخذوا منها الزهور أيضاً. كانت في هذه المجموعة أيضاً سيدة أخرى لكن من دون زهور، ولم يُقَبِّل دينيس يدَها.

ناقش الجميع لبعض الوقت شيئاً ما مع مدير المطعم بعد أن نظروا إلى جميع الجهات، ومن ثم تحركوا إلى الطاولة التي يجلس إليها إيغور سيميونوفيتش ونيكولاي نيكولايفيتش.

قال دينيس، وهو يقترب من الطاولة:

- إيغور سيميونوفيتش، هؤلاء من معارفي الجيدين، إنهم أناس رائعون، لا توجد طاولة مناسبة لمثل هذه المجموعة الكبيرة. أما نحن الثلاثة فنجلس على أكبر طاولة. الآن سيضعون بجانبها، طاولة صغيرة، وستكفي الأماكن للجميع. هل لديكما مانع؟

أجاب إيغور بترحاب:

- دينيس، صديقي، عمَّ تتكلم؟! - بالطبع، ليجلسوا!

بينما كانوا يضعون الطاولة، ويجلبون العدد اللازم من الكراسي، ويجلس أفراد المجموعة عليها،استطاع إيغور سيميونوفيتش تأملهم جميعاً. المرأة الشابة، التي تحمل الطاقة جميلة جداً، وترتدي لباساً جميلاً جداً. وكان من الواضح أنها برفقة رجل متوسط القامة، في بزةٍ فاخرة وقميصٍ دون ربطة عنق. فكَّر إيغور أنَّ عمر هذا الرجل بعمره تقريباً. عانق دينيس بالتحديد هذا الرجل في أثناء اللقاء. كان هناك شابان، يقاربان الثلاثين من العمر، يتحدثان بصوت عالٍ ويضحكان، ويرتديان ملابس غير مألوفة. في نظر إيغور سيميونوفيتش كانت امرأة سمينة ومرحة ومُوَرَّدَة الخدين، تضحك وتتحدث بصوت عالٍ جداً، ترتدي فستاناً بنياً، طويلاً غير رسمي. كان هناك رجل مسنٌّ، سمين، أشيب يرتدي كنزةً حمراء وجينزاً، يضحك ويتحدث بأعلى الأصوات، وهو أول مَنْ مَدَّ يده لمصافحة نيكولاي نيكولايفيتش.

قَدَّمَ نفسه:

- غيورغي، ممكن غوشا.

قال نيكولاي نيكولايفيتش بشكل غير متوقع بالنسبة لإيغور سيميونوفيتش:

- ماذا! أتظن أنني لا أعرف اسمك؟

- أما أنا فاسمي: نيكولاي، ممكن كولا، وابتسم نيكولاي نيكولايفيتش وانحنى محيياً.

قال غوشا:

- تشرفنا.

ومد يده ليصافح إيغور سيميونوفيتش.

قال هذا وهو يشدُّ على يده وينظر باستغراب إلى نيكولاي نيكولايفيتش:

- إيغور سيميونوفيتش.

قال دينيس بصوت عالٍ لإيغور سيميونوفيتش:

- اسمحوا لي أن أعرّفكم جميعاً. ثم مضى يقول متوجهاً بالحديث إلى المجموعة القادمة:

- هذان شريكان لنا في العمل. ثم توجه إلى إيغور سيميونوفيتش ونيكولاي نيكولايفتش وقال مشيراً بيده إلى القادمين: وهؤلاء من معارفي الجيدين، إنهم أناس رائعون وممثلون غير عاديين، أنهوا مسرحيتهم منذ فترة قصيرة في المسرح، وهو ليس بعيداً من هنا.

قال غوشا بصوت عالٍ:

- آ-ها! اجتمع الشركاء والممثلون، وضحك الجميع[1]

قال الرجل الذي يرتدي بزةً فاخرةً:

---

(١) سبب الضحك هو الطرافة الناتجة عن السجع بين كلمتي «الشركاء» و«الممثلون» بالروسية (المترجم).

- أما أنا فلست من هؤلاء، ولا من أولئك. أنا فقط زوجها.
ناظراً بعينيه إلى المرأة الشابة الجميلة.

ابتسم إيغور سيميونوفيتش، لكنه كان يستمع للجميع دون انتباه. كانت تجلس مقابله تلك المرأة التي كانت تحمل غَمر الزهور. ابتسمت هي أيضاً، وبدت وكأنها شاردة الذهن. لم يستطع إيغور أن يقدِّر عمرها، ولو بشكل تقريبي. اعتقد أن عمرها من ٣٠-٤٠ سنة، ولكنه لم يستطع أن يقدِّر على نحو أدق. بدا له على الفور أن وجهها مألوف له، أما عيناها فقد أدهشتاه.

قالت بصوت منخفض قليلاً، وذي وقع مذهل، وفيه بحة تكاد لا تسمع:

- سفيتلانا.

قال نيكولاي نيكولايفيتش بسرور:

- أنتِ هكذا توجهين إهانة لنا. - بالطبع، نحن نعرف اسمك.

أجابت:

- أما صديقك، فلا يعرف.

وابتسمت.

نظر إليها إيغور سيميونوفيتش، وكل مَنْ كان حولها، أخذ يبتعد إلى مكان ما، وتغيب ملامحه. راح وجهها وعيناها يقتربان، ولكنهما لم يصلا إليه. لم يسبق له أن رأى مثل هاتين العينين في حياته. كانتا

واسعتين، نَدِيّتين، غامضتين ولامعتين. وحولهما الكثير والكثير من التغضّنات. وكان فمها بشكل لم يجرؤ حتى على وصفه. وشفتاها تتحركان بشكل جميل ساحر، أما ابتسامتها فكانت رائعة جداً وموحية، لدرجة أن إيغور سيميونوفيتش لم يصدق ما يراه.

في أثناء ذلك قال نيكولاي نيكولايفيتش:

- من فضلك لا تزعلي، إن صديقي ببساطة يعمل كثيراً، هو لا يقرأ الكتب، ولا يذهب إلى السينما، ولا يشاهد التلفاز، نحن قد أتينا من بعيد، هو، بالطبع، يعرفك أيضاً. الآن سيتذكر. إنّ زوجتي وابنتي لن تصدقا أنني التقيت بكم، وتحدثت إليكم.

سألتْ إيغور سيميونوفيتش:

- بمَ سأدعوكَ؟

ارتعش إيغور بشكل لا يكاد يُلاحظ، وأجاب:

- إيغور سيميونوفيتش، ممكن إيغور فقط. الآن هذا الأمر أصبح عادياً. ادعيني إيغور، وكفى.

سأل غوشا الجميع مباشرةً بصوت عالٍ:

- حسن، ماذا سيشرب كل منكم؟

سألت هي إيغور سيميونوفيتش:

- ماذا ستشرب؟

أجاب:

- نحن شربنا بيرة.

قالت وهي تهزُّ كتفيها:

- بيرة؟ لا، لا، أنا لا أشرب البيرة.

أضاف إيغور سيميونوفيتش:

- شربنا فودكا أيضاً.

قالت بصوت مُنغَّم وضحكت بصمت:

وفودكا؟ رااااااائع! - حسن، لنشرب فودكا معكم. أنا شربت القليل من الكونياك في المسرح بعد المسرحية. ما رأيك بالكونياك؟

قال إيغور سيميونوفيتش:

- ممكن كونياك، لكنني لا أحبه، إلا أنني أستطيع أن أشرب الكونياك.

قالت مبتسمةً:

- حسن، ولماذا... فودكا يعني فودكا، سنشرب الفودكا.

قال نيكولاي نيكولايفيتش:

- أما أنا فسأشرب البيرة.

كان الجميع يتحدثون حول الطاولة في وقت واحد. الشابان والممثلة المتورّدة السمينة كانوا يتحدثون فيما بينهم.

دينيس والرجل صاحب البزّة والممثلة الشابة الجميلة كان لديهم حديثهم الخاص بهم. أما غوشا فكان يتكلم في وقت واحد مع الجميع. وكان نيكولاي نيكولايفيتش يستمع إلى الجميع، وأحياناً يضيف شيئاً

ما إلى الحديث، وهي تضحك بهدوء في بعض الأحيان وتقول شيئاً ما. أما إيغور سيميونوفيتش فكان صامتاً، لم يكن يستمع لأحد ويحاول عدم النظر إليها، لكنه كان ينظر إليها بشكل دائم.

أحْضَروا صينيةً عليها أنواع مختلفة من المشروبات والمقبلات. أخذ كل واحد ما يخصه. شرب غوشا المياه المعدنية. وأعلن متنهداً: أنه قد شرب حصته من الكحول في هذه الحياة. والآن يمكنه فقط أن يحسد الآخرين. ووعدَ أيضاً، بأنه لا أحد يمكنه أن يلاحظ إذا كان صاحياً أم لا، إنه يسكر من جلوسه وسط المجموعة. شرب الجميع معاً أول نخبين. احتجَّ غوشا عندما كانوا يشربون النخب الأول ويقرعون الكؤوس، وقال:

- لا، لا، لا! هذا لن يمرَّ! عندما تقرع الكأس، يجب أن تنظر إلى عيني الشخص الذي تقرع كأسك معه. هذا شيء إلزامي! وإلَّا فسيكون الأمر كابوساً ورعباً!

سألت السيدة السمينة المرحة، بصوت عالٍ، وهي تمسك كأساً من النبيذ الأحمر، وترفعها عالياً، أعلى من الجميع:

- ما هذا الكابوس، يا عزيزي غوشا؟!

أجاب غوشا بصوت تمثيلي عميق:

يقول الإيطاليون، وهم يلتزمون التزاماً صارماً بما يقولون: إذا قُرِعَت الكؤوس ولم يُنْظَر إلى عيني الشخص الذي ترفع الكأس معه، فلن يكون هناك اتصال جنسي ممتع لمدة سبع سنوات، هكذا!

قالت الممثلة المتورِّدة بصدق:

- أيَّ رُعْبٍ هذا! فلينظر الجميع في عيون بعضهم البعض!

وأكَّد أحد الشابين:

- حقاً، كابوس! إيليا، انظر في عيني.

أصبح الجميع يقرعون الكؤوس بفرح، وينظرون في عيون بعضهم البعض. كان نيكولاي نيكولايفيتش يضحك وقد فتح عينيه.

أما إيغور سيميونوفيتش فقد ابتسم ابتسامةً عريضة، وطفق ينظر في عيون الجميع. كان الأمر بالنسبة إليهم ممتعاً ومرحاً. أما هي فكانت تجلس في الطرف المقابل.

قالت مبتسمةً:

- أنا وأنت نشرب فودكا، لذلك ينبغي أن ينظر كل منا في عيني الآخر بمسؤولية أكثر من الآخرين، وإلّا ستكون العواقب مؤلمةً ومخيفةً.

قال إيغور سيميونوفيتش، وقد احْمَرَّ خجلاً:

- فعلاً.

ونظر في عينيها حاملاً كأسه أمامه.

كان انعكاس الضوء الخافت يرتجف في عينيها، وبأنفيهما دفء عميق مبهم. اقتربت هاتان العينان باندفاع، وغمرتا إيغور كله. كانت شفتاها تبتسمان من دون أن تنفرجا، وقد غمرته هذه الابتسامة أيضاً

بالجمال والسعادة. امتدت يدها مع كأس الفودكا نحوه وقرعا كأسيهما ... ثم أغمضت عينيها وشربت الفودكا بسلاسة، من دون أن تُغَضِّن وجهها، وعاد إيغور إلى وعيه، وشرب كأسه بقليل من التأخير.

أصاب إيغور سيميونوفيتش شعور بالخفة والسرور لم يعهده من قبل.

حكى غوشا بعدئذٍ نكتتين، وضحك الجميع. ثم حاول نيكولاي نيكولايفتش أن يتحدث عن منطقة الأورال وحرفة البناء، وعلى الفور لم يستمعوا إليه تقريباً، ورفع غوشا النخب الثاني، وذكَّرَهم وهو ينهيه:

- وفي العيون! في العيون ، يا إخوتي!

قالت الممثلة السمينة وهي تضحك:

- نعم، بالطبع مفهوم! يمكنك ألَّا تذكِّرنا.

وتكرّر كل شيء، النظرة، العمق المبهم، ارتعاش المصابيح. وزادت السعادة..

قالت فجأةً: أنت يا إيغور،على ما يبدو، إنسان جيد جداً.

كانت تتحدث بشكل هادئ بصوتها المدهش. لكن صوتها كان مسموعاً بشكل رائع. شعر إيغور سيميونوفيتش أنه حتى لو كان أصمَّ، فسيفهم كل ما تقوله. كانت شفتاها تتحركان بشكل يفوق التصور.

سأل:

- لماذا قرّرتِ ذلك؟

قالت: أشعر معك بالارتياح والطمأنينة، يطيب النظر إليكَ، لك وجه يوحي جداً بالسعادة، وكذلك العينان ...

وفيما هي تقول ذلك شعر إيغور سيميونوفيتش أنها، ربما أكبر سناً مما تبدو. وشعر أيضاً بحزنها. لم يكن قد صادف مثل هذا الحزن من قبل، كان ذاك الحزن يدوّي في عمق صوتها ويرتعش في عينيها. ولم يعرف كيف يمكن أن يتجاوب مع هذا الحزن؟ لكنه شعر تجاهه بحنان لم يعهده في نفسه من قبل، ولم يكن يعرف أنه موجود في أعماقه. اكتشف أن المرأة، التي كانت تجلس قبالته تعاني في داخلها من الشعور بالوحدة... وقد جعله هذا أكثر سعادةً مما كان عليه.

سألته، من أين هو، وماذا يعمل، وعن سبب سعادته، وتحدث هو بشكل مختصر، لأنه لم يكن هناك شيء على وجه الخصوص يمكن التحدث عنه. أجاب عن سؤالها الأخير، إنه سعيد لأنه أنجز صفقة بنجاح، وهذا يفتح أمامه آفاقاً جديدة.

تحدثت: إنه كان لديهم مسرحية في المساء، وهذه المسرحية يمثلونها في بعض الأحيان فقط، لكنهم يحبونها. كان أداء المسرحية رائعاً. وقالت أيضاً: إن ممثلي مسرحهم يجلسون عادةً في هذا المطعم بعد العروض المسرحية. لكنها نادراً ما تأتي إليه، وبتعبير أدق، زارته مرتين فقط. أخذ إيغور سيميونوفيتش دورق الفودكا وأراد أن يصبَّ لها، ولنفسه، لكنها غطّت كأسها بيدها.

قالت وهي تبتسم:

- أنا لن أشرب أكثر، أنت ربما لا تلاحظ، ولكن أنا سكرت. أنا قد شربت كونياك أيضاً. أشعر بأنني على الكحول، (ضحكت بشكل هادئ) وعليّ أن أستيقظ باكراً جداً.

قال إيغور سيميونوفيتش:

- وأنا أيضاً.

قالت:

- صدّقني، يجب عليّ الاستيقاظ في وقت أبكر، - قالت هذا بلهجة تجعل من المستحيل الجدال معها. – عليَّ أن أغادر الآن.

قال إيغور سيميونوفيتش:

- أنا سأرافقك.

قالت بصوت هادئ:

- بالطبع لا.

سأل إيغور ناظراً في عينيها:

- لماذا؟

سألت وقد أمالت رأسها قليلاً: وما الداعي؟

أجاب:

- وكيف ذلك؟ وفي الفناء ظلمة مطبقة.

قالت وهي تبتسم:

- ما أطرف قولك: «في الفناء»... لا يُقال هكذا في موسكو. لكن لا تقلق، في الفناء تنتظرني سيارة.

في هذا الوقت، ظهرت حركة عند الطرف الآخر من الطاولة.

قال الرجل ذو البزة الفاخرة بصوت عالٍ:

- هكذا! حسن، ربما، حان الوقت بالنسبة إلينا، - أتمنى لكم كل الخير، شكراً على الجلسة.

قال دينيس للجميع:

- نعم، وأنا سأذهب، ثم مشى إلى إيغور سيميونوفيتش، وقال له بهدوء: - من فضلك لا تقلق. أنا سأدفع الحساب. الفنانون، كما تعلمون، لم يعتادوا أن يدفعوا عن أنفسهم. بالإضافة إلى ذلك، هم معارفي وأنا دعوتهم، ودعوتكما أيضاً.

اعترض إيغور سيميونوفيتش:

- لا، دينيس، هذا لن يمرَّ، أنا لست موافقاً...

قال دينيس:

- أنت هنا ضيف! عندما سآتي إلى بيرم، عندها ضَيِّفني. إلى اللقاء غداً إيغور سيميونوفيتش؛ يا شباب، كل التوفيق لكم! إلى اللقاء!

وذهبوا إلى المخرج.

سأل إيغور سيميونوفيتش على الفور:

- وأنتِ، سفيتلانا، هل ستبقين؟.

- أو أو أوه! تذكرتَ اسمي! ليذهبوا. أنا لا أحب هذا الخروج المشترك وأحاديث الوداع عند المشلح، أو عند الباب، هذا لا

لزوم له، ثم قالت وهي تَـزُرُّ عينيهـا: - ولكـن يؤسـفني أنـك لم تعرفني، وبشكل عام لم تَرَني في أي مكان.

أخذ إيغور سيميونوفيتش يبرّر:

- لا، بالطبع، أناعرفتك ، لكن ليس مباشرة...

قالت ضاحكةً، بينما كان إيغور سيميونوفيتش يهزُّ كتفيه.

- لا تكذب! لم تعرفني - لكن هذا جيد. لأنه لو كنتَ قد رأيتني في فيلم سخيف ما، والذي كنت سأخجل منه الآن، لما كنتَ حتى لتشرب الفودكا معي. أو أسوأ من ذلك أيضاً، حتى ولو شاهدتني على شاشة التلفاز، لكن أقترح عليك أن تشاهدني في المسرح. بعد غدٍ سنقدّم مسرحية جيدة، أنا أحبها. تعال وشاهدها. أنا أدعوك.

قال:

- بعد غدٍ سأكون في البيت. سنغادر غداً.

- هكذا؟ إذاً، عندما ستكون في موسكو، تفضل. أنت الآن تعرفني، وستجد المسرح. هذا أمر بسيط. الدعوة ستبقى سارية المفعول. أنا ذاهبة، -نهضت، - أوه! أيّة سكرى أنا! شباب، غوشا! إلى اللقاء، أنا ذاهبة، إلى لقاء قريب.

قفز نيكولاي نيكولايفيتش وقال:

- أوه، - أنا لم آخذ توقيعكِ. من فضلك وَقِّعي لي.

قالت بمرحٍ:

- توقيعي دائماً معي، ولكن على ماذا سأكتب؟

- الآن، الآن، - أعطاها نيكولاي نيكولايفيتش ورقةً مُجَعّدَةً وقلماً. وقّعي لزوجتي. اسمها فيكتوريا أوفيكا.

استمرَّت مبتسمةً وقالت بشكلٍ هادئ وهي توقِّع الورقة:

- يا إلهي، لأي شيء يلزمكم هذا؟ ثم أردفت: بَلِّغوا فيكتوريا تحياتي شفوياً.

قال نيكولاي نيكولايفيتش بفرحٍ ناظراً إلى الورقة:

- سوف تكون سعيدةً، يا للروعة، للمرة الأولى في حياتي آخذ توقيعاً.

وقف إيغور سيميونوفيتش، أزاح الكرسي، عازماً على الذهاب.

سألت:

- ولماذا هذا أيضاً؟

أجاب مباشرةً:

- أنا سأرافقكِ إلى الباب، و لن أتحدث عند مشلح الملابس.

ابتسمت ولم تقل شيئاً. مشى إيغور سيميونوفيتش خلفها. بدت قصيرةً جداً. على الرغم من أن معظم الناس كانوا يبدون لإيغور سيميونوفيتش قصيرين.

لحق بهم النادل، وكان نحيفاً، إلى مشلح الملابس، حاملاً الزهور بيديه. وقال:

- زهورك.

قالت:

- شكراً جزيلاً.

قال النادل:

- أرجو المعذرة، هل يمكنني التقاط صورة معك؟.

قالت:

- بالطبع، بكل سرور.

أعطى النادل الزهور لعامل مشلح الملابس وأخرج من جيبه آلة تصوير.

قال لإيغور سيميونوفيتش:

- من فضلك التقط لنا صورةً، اضغط هذا الزرّ.

جاء الشاب إليها ووقف بجانبها. ظل ثانيتين لا يعرف أين يخفي يديه، وفي النهاية وضعهما خلف ظهره.

قالت ضاغطة بكتفها عليه، وابتسمت:

- حسن، لماذا أنت خجول هكذا.

ابتسمت، كما يقولون، بصورة مبهرة وتحوَّلت إلى امرأة مختلفة جداً، لا يمكن الوصول إليها، رائعة ... نظر إيغور سيميونوفيتش إليها

من خلال عدسة الكاميرا، التي تُغيِّر الواقع، وتُبعِدُه، وتصغِّره، ورأى الوضعية العفوية والرشيقة التي اتخذتها، وكم كانت تبدو أنيقةً ببلوزتها الرقيقة الرمادية وبنطالها الأسود.

ما أجمل جيدها، وكتفيها، وصدرها، وخصرها...!

ريثما كان عامل المشلح يجلب معطفها ويضعه على كتفيها، كان إيغور سيميونوفيتش هو الذي يمسك الزهور، وعندما أعطاها إياها، نظرت إليه من الأسفل إلى الأعلى وابتسمت، كما فعلت قبل قليل خلف الطاولة.

- ها أنت الآن حزين. لا داعي. لا يليق بك ذلك. كن سعيداً، تماماً كما أعجبتني. أتمنى لك الخير. وتفضل إلى المسرح، سأكون سعيدةً.

قال: شكراً لك.

- الشكر لك، لهذه الأمسية الهادئة الرائعة. إلى اللقاء. وآمل أن يكون قريباً.

قال: إلى اللقاء.

غادرت، أما إيغور سيميونوفيتش فعاد إلى الطاولة.

قال غوشا وهو جالسٌ إلى الطاولة لنيكولاي نيكولايفيتش:

- ... إنها ممثلة درامية فريدة، قبل ثماني سنوات، كان الجمهور يذهب، فقط للنظر إليها في أي دور. أما مَنْ الذي أخرج

المسرحية، أو ما هي المسرحية، ومن يمثل معها على خشبة المسرح، كل هذا لا يهم. لكن الآن لديها السينما والتلفاز ... على خشبة المسرح، لم يعد لديها ذاك التركيز، ولا تلك القوة. لكنها، بالطبع، ممثلة، وأمثالها قِلَّةٌ، أما في جيلها، فتقريباً لا يوجد مثلها. وربما تكون وحيدةً...

كانت هناك أحاديث أخرى أيضاً. أصبح نيكولاي نيكولايفيتش ثملاً تماماً. تمكن من الحصول على التوقيعات من جميع من بقي خلف الطاولة. أكمل إيغور سيميونوفيتش شرب الفودكا وحده وجلس مصدوماً تماماً. حاول ألَّا يفكر في أي شيء، لأن الفكرة الوحيدة التي أتت، والتي كان لا بد من التفكير بها على الفور، كانت فكرة:«ما العمل الآن؟».

ذهبا إلى الفندق بسيارة أجرة. كان نيكولاي نيكولايفيتش مرحاً جداً.

- هل تتصور، يا سيميونوفيتش! كنت أناديه:«غوشا[1]»، وهو يناديني: كولا!

أنا رأيته لأول مرة في السينما... ولا أتذكَّر متى. وقد تبيَّن أنه رجل بسيط! وهل تعرف من أين هو؟ من تشيليابينسك. هل تتصور. إنه مواطن من بلدي! فيكا لن تصدقني. وهذه صاحبتك سفيتا، إنها داهية...

---

(١) غوشا و كولا : غوشا ، كولا: يناديان بعضهما البعض باسميهما المصغرين، مما يدل على رفع الكلفة والتقارب (المترجم).

وصلا إلى الفندق في الواحدة والنصف ليلاً. كان البار في الطابق الأرضي لا يزال يعمل. وبخطوات متثاقلة ذهب نيكولاي نيكولايفيتش لينام. أما إيغور سيميونوفيتش فجلس في البار وقرَّر أن يشرب أكثر حتى ينام. الشعور بالسعادة يختلط في نفسه باضطراب شديد، وكان يشرب الفودكا، ويتبعها بعصير الطماطم. ولا يشعر إلاّ بأن شفتيه تجفان، وقلبه لا يهدأ.

حالما جلس في البار، اقتربت منه على الفور سيدة شابة وسألته ما إذا كان يشعر بالملل. ردَّ بأنَّه ليس كذلك، وذهبت. هناك أخريات مثلها من السيدات الشابات، كُنّ يجلسن في البار، كان يشغلهن حال إيغور سيميونوفيتش، هل هو مالٌّ أم لا. لكن إيغور سيميونوفيتش كان يجلس ويشرب الفودكا بهدوء. مضت ساعة تقريبا، ولم يكن أي معنى للجلوس بعد ذلك، لأن الفودكا لم تؤثر فيه، والنعاس لم يأتِ بعد، ولم يقترب.

- أرى أنك مستاء من شيء ما.

سمع إيغور سيميونوفيتش صوت رجل. حوَّل بصره عن الطاولة واستدار نحو ذاك الصوت. رأى أمامه رجلاً كهلاً، صغير الجسم، نحيلاً، كبير الأنف، يرتدي الزيَّ الرسمي الخاص بالفندق، وكان لون سترته أحمر داكناً.

قال إيغور سيميونوفيتش:

- أنا لم أفهم.

قال الرجل الكهل، وهو يبتسم:

- أرى أن مزاجك سيّئ. وأرى أنك متعب وتشعر بالوحدة. ببساطة، من الممكن تحسين المزاج، والتخفيف من وحدتك، وإزالة التوتر، إذا أردتم كان يتحدث بهمسٍ عالٍ ولهجةٍ ممالِقة، ويرسم على وجهه ابتسامة مناسبة.

سأل إيغور سيميونوفيتش:

- كيف هذا؟

قال الرجل:

- أعتقد أن الاجتماع مع فتاة ساحرة، من المؤكَّد، سيرفّه عنكم أو يهدئكم. وإذا كنتم ترغبون يمكن إجراء تدليك ...

قال إيغور سيميونوفيتش:

- آه !! ظننت، أن لديك بعض العروض غير العادية.

قال الكهل وهو يهمُّ بالمغادرة:

- لا تتسرَّع في الرفض. أفضل الفتيات في موسكو. طالبات؛ لا تَشُكّوا في ذلك. وعلى كلٍّ اعذروني، أنا لا أصرّ، وسامحوني إذا كنت قد أزعجتكم.

قال إيغور سيميونوفيتش وهو ينظر في عيني الرجل:

- تقول طالبات.

نظر إلى عيني الكهل، وشعر أنه لم يتبقَّ لديه أيٌّ شيء من السعادة، وحلّ مكانها ألمٌ غير معروف أو ألمٌ منسيٌّ تماماً منذ زمن بعيد.

وفي العينين، اللتين حدَّق فيهما، رأى إيغور سيميونوفيتش قدراً من الازدراء، وشيئاً ما لزجاً ومثيراً للاشمئزاز جعلا الغشاوة تسقط بصوت هادئ وغير مسموع لأحد عدا إيغور سيميونوفيتش، صوت يشبه صوت انقطاع خيط رفيع لصنارة صيد.

من الواضح أن الطالبة كانت في التعليم المفتوح، وغادر إيغور سيميونوفيتش بسرعة. عندها استطاع أن ينام وملامح التعب والاشمئزاز على وجهه.

استيقظ في وقت مبكر، نحو الثامنة. استيقظ أكثر بؤساً مما كان عليه قبل النوم. شرب ماءً بارداً مباشرةً من الصنبور حتى ارتوى، وقفز فوراً إلى الحمَّام. ساعده ماء الرَّشاش على أن يستعيد صفاء ذهنه، ولكنَّه لم يزده سعادةً. وبينما كان يستحم، تَعَرَّقَتْ المرآة التي فوق المغسلة بشكل كبير. كان عليه كي يحلق ذقنه أن يمسح بيده سطح المرآة قليلاً. لكن المرآة بقيت رطبةً، وكان الانعكاس فيها غير واضح، ولكن إيغور سيميونوفيتش نفسه لم يكن يريد أن يرى صورته في المرآة على نحو واضح.

شَغَلَه عن الحلاقة جرس هاتف الفندق ذو الصوت العالي والمُلحّ. ذهب إيغور سيميونوفيتش ليردَّ على الهاتف.

سمع صوت نيكولاي نيكولايفيتش يقول:

- سيميونيتش، كيف حالك؟

- لا بأس

- هل تشاهد التلفاز؟

- لا.

- شغِّله بسرعة سيميونيتش.

- لماذا؟.

- سترى، سترى! هيا، افتح التلفاز.

ماذا هناك، كولا!؟

- سترى.

- أيّة قناة؟

- لا أعرف ... عندي هنا هو الزرُّ الرابع. سيميونيتش، أسرع ...

وجد إيغور سيميونوفيتش جهاز تحكم التلفاز وشغَّلَه على القناة الرابعة. خلال ثانيتين أضاءت الشاشة، ورأى رجلاً، كان معروضاً على الشاشة حتى الصدر. الرجل في بذلة طيار عسكري. كانت على كتفيه رتبة مُقَدّم. تعجّبَ إيغور سيميونوفيتش، لكنه استمر في النظر إلى الشاشة، متسائلاً: لماذا استعجله نيكولاي نيكولايفيتش بتشغيل التلفاز.

قال الطيار العسكري: بالطبع، يُظْهِر الطيارون الإيطاليون والفرنسيون برامج أكثر تأثيراً وتعقيداً، لكنهم يطيرون في طائرات تدريبية، ونحن في طائرات حربية، الآلة الحربية أثقل بكثير، لذلك فإنه من الصعب التحكم بها. لذا، فإن المتخصصين في المعرض الجوي الأخير قَدَّروا عالياً بالتحديد برنامجنا...

تَحَوَّلَ إيغور سيميونوفيتش بعيداً عن الشاشة، وتوجه إلى الهاتف للاتصال بنيكولاي نيكولايفيتش، ومعرفة، ماذا يعني هذا، لكنه في هذه اللحظة سمع صوتاً من التلفاز جعله يجفل ويلتفت. نظر، وأصبح واضحاً الآن بالنسبة إليه أن التي تظهر على شاشة التلفاز حتى الصدر كانت هي.

قالت وهي تبتسم كما كانت تبتسم عندما صوَّرها إيغور سيميونوفيتش:

أنا لا أزال أتساءل ما هو موقف زوجتكم من تلك الأشغال الخاصة بكم، هل تأتي لمشاهدة العروض التي تقومون بها؟ لقد رأيت ما تقومون به في السماء، واعتقدت أنني لو كنت أعرف أن زوجي هناك، لكنت قد مُتُّ من الخوف عليه، ولما سمحت له بعد ذلك بممارسة هذا العمل.

ظهر المقدَّم الطيار من جديد على الشاشة، وقال ناظراً إلى الأسفل:

- ولكن زوجة الطيار ليست امرأة عادية.

شعر إيغور سيميونوفيتش كأن صاعقةً قد أصابته. كانت جميلة جداً. قَصَّةُ الشعر مذهلةٌ، لون الوجه رائع، لا تغضّنات حول عينيها، العنق جميل، بلوزة ذات لون فاتح بزهور ناعمة. الصوت صوتها، لكنه لا يشبه صوتها عندما كانت خلف الطاولة. كان صوتها جميلاً، ولكن تنقصه تلك البحَّة الخفيفة. أما الشفتان والعينان فكانتا كما هي، لكن الآن لم يكن في عينيها حزن على الإطلاق.

قال الطيار أيضاً شيئاً ما عن زوجته وعن نساء الطيارين بشكل عام، ثم عادت هي إلى الظهور من جديد.

- أما الآن، أريد حقاً أن أسألك السؤال الذي ربما يقلق الكثير من النساء،

ضيَّقت عينيها: قولوا لي، كيف تتعامل زوجات الطيارين مع الأغنية المعروفة«أولاً وقبل كل شيء، أولاً الطائرات، أما الفتيات، الفتيات بعد ذلك». لكن الجواب عن هذا السؤال، آمل أن نسمعه بعد نشرة الأخبار مباشرةً، وابتسمت بشكل مُبْهر.

حالما بدأت الأخبار، على الفور، رنَّ جرس الهاتف.

- هل رأيت؟ - سأل نيكولاي نيكولايفيتش بفرح من سماعة الهاتف.

- رأيتُ - أجاب إيغور سيميونوفيتش.

- وهكذا، فهمتَ الآن مع مَنْ كنا بالأمس؟

- فهمت، كولا، فهمت! دعنا نلتقِ خلال عشرين دقيقة في البار في الطابق السفلي. فهمت؟!

وضع السماعة وأطفأ التلفاز.

فهم أنه لم يكن يشاهد التلفاز سابقاً، أما الآن فلن يشاهده أبداً. فجأة أدهشته معرفة جديدة.

كل ما يُعرض على شاشة التلفاز قبل الآن كان دائماً بالنسبة إليه كالأشياء التي تجري خلف النافذة. سواء أكان ما يُبثّ نشرة أخبار أو فيلماً

سينمائياً. كل شيء هناك له وجود مستقل عنه، ولم يكن فيه أي شيء له صلة بحياته. بالنسبة إليه لم يكن هناك أناس، أما الآن فلقد أصبح ذلك موجوداً.

شخص في حياته. إنها هي الآن هناك.

جاء نيكولاي نيكولايفيتش إلى البار متأخراً قليلاً، كان سعيداً وقد حلق ذقنه بعناية بالغة. أما إيغور سيميونوفيتش فكان قد اتخذ قراراً وفكّرَ بكل شيء.

- الأمر سيكون هكذا، يا كولا، - قال إيغور سيميونوفيتش بعد تحية قصيرة جداً. - أنا الآن سأذهب وأكمل بنفسي كل الأعمال. أما أنت فَغَيِّر التذاكر إلى يوم الجمعة ومدِّد الإقامة في الفندق.

- سيميونيتش، هل حدث شيء ما؟!

- لم يحدث شيء. هكذا يجب.

- وأنا باقٍ أيضاً؟

- وأنت أيضاً، ستبقى. يعني، ستفعل كل هذا ثم ستتصل مع بيرم، قُلْ إن كل شيء على ما يرام، لكننا سنتأخر ليومين. غَيِّر موعد الاجتماع إلى يوم الاثنين. أما كل الأسئلة الأخرى فعلى الهاتف. ولكن قل لهم ألّا يتصلوا لأمور تافهة. واتصل بعائلتي، وأخبرهم بذلك.

- سيميونيتش، يجب عليَّ العودة إلى البيت، لدي غداً...

- لا تكثر الكلام، كولا! - قاطعه إيغور سيميونوفيتش بشكل حاد - لن يحدث أي شيء عندك في المنزل. أنا بحاجة إليك

هنا. ستعمل كل شيء، وستتصل بي، وتضعني بصورة كل الوضع. بعد ذلك ارْتَحْ، وسوف نلتقي في المساء. سنتناول العشاء في مكان ما.

في الحقيقة، لم تبق لديهم أية أعمال جدية في موسكو. كان ينبغي أن يجتمعوا مرةً أخرى مع العملاء لاستكمال مناقشة التفاصيل، ولاستغلال هذه المناسبة عليهما أن يذهبا إلى مكانين معينين. وهكذا سار إيغور سيميونوفيتش بخطوات متمهلة نحو مخرج الفندق، وذهب نيكولاي إلى الإداري في الفندق، يلتمس تمديد الإقامة.

- سيميونيتش! - سمع إيغور في أثناء الخروج. ركض نيكولاي نيكولايفيتش إليه وبيده مجلة ما - هنا سيميونيتش على طاولة الإداري توجد مجلات، وقد رأيت هذه هناك، من فضلك، انظر!

كانت هي على غلاف المجلة. تضحك في الصورة وكانت في معطف أحمر فاتح لمَّاع ومظلة في يدها.

- كولا، اهدأ! - قال إيغور ما بك، ألا يوجد لديك ما تفعله؟

خرج من الفندق وذهب إلى سيارة أجرة قريبة من المكان. تمكن من إنهاء جميع الأعمال نحو الساعة الخامسة. كان نيكولاي نيكولايفيتش قد أبلغه منذ فترة طويلة، بأنه مدّد فترة الإقامة في الفندق وغَيَّر التذاكر. ولكن، بصعوبة كبيرة، لأنه في مساء يوم الجمعة، الكل يسافر ...

قاطعه إيغور سيميونوفيتش. وذكَّره بأن يتصل ببيرم.

في الساعة الخامسة، ذهب إيغور سيميونوفيتش إلى المسرح لشراء تذكرة. ذهب بنفسه، مع أنه في الآونة الأخيرة، وعلى نحو أدق، في السنوات الأخيرة، تعوَّدَ أن يكلِّف شخصاً ما. لكن شراء التذاكر للمسرح لم يستطع أن يكلِّف به أحداً. وجد المسرح بسهولة. طلب من سائق سيارة أجرة قديم أن يدلّه على المسرح الموجود بجوار المطعم الذي احتفلوا فيه. كان هناك أكثر من مسرح. عندها سأله عن أكبر هذه المسارح، وأخذه السائق إلى هناك.

عندما رأى إيغور سيميونوفيتش المسرح بنفسه اقتنع مباشرة بأنه لم يخطئ، فبالقرب من المسرح، وعلى أعمدته، وفي المسرح نفسه رأى ملصقات وصوراً من المسرحيات. كانت معظم هذه الملصقات تحمل صورها. ها هي تجلس في ثوب تاريخي على العرش. ها هي في فستان خفيف وإكليل من الزهور البرية يزيِّن رأسها، وشعرها مُسدَل. ها هي ترتدي ثوباً بكتفين عاريتين ومروحة في يدها، وبجانبها يقهقه غوشا في ثوب رسمي وقبّعة أسطوانية سوداء عالية على رأسه. في الصور لم تكن نهائياً، كما كانت خلف الطاولة عندئذٍ. لكنها كانت هي! نظر إيغور سيميونوفيتش إلى هذه الصورة وفقد أنفاسه. وعندما اشترى تذكرة كان يتنفس بصعوبة.

اشترى تذكرتين لأفضل المقاعد التي ما زالت في البيع. لماذا اشترى تذكرتين؟ هو نفسه لم يفهم. كانت هذه أول مرة في حياته يشتري فيها تذاكر للمسرح، وبشكل عام، لم يسبق له في حياته أن دخل مسرحاً. المسرح لم يكن له وجود بالنسبة إليه. احتفظَ بالتذاكر في يديه الكبيرتين، وكانت يداه ترتجفان قليلاً.

لم يكـن يعـرف البتـة مـا يجـب أن يفعلـه قبـل العـشاء، وطفـق إيغـور سيميونوفيتش يبحث عـن صـديقه الـسابق، ابـن بلـده ورفيقـه في الجـيش، الذي يعيش في موسكو منذ فترة طويلة، ويعمل كرئيس غير كبير في مجـال النقل. فَرِحَ صديقه جداً باللقاء، وتناولوا العشاء ثلاثتهم معـاً - نيكـولاي نيكـولايفيتش، وإيغـور سـيميونوفيتش و توليـك، - تـسميته بـشكل آخـر كانت مستحيلة. أكلوا في المطعم الذي أعجب إيغور. هناك قَدَّموا اللحوم بقطع كبـيرة. لكـن هـذه المـرة، لم يأكـل إيغـور أي شيء، لكنـه شرب. وبـدأ مباشرةً بالفودكـا. جلـسوا في المطعـم لفـترة طويلـة، حتـى إغلاقـه. عندئـذٍ ذهبوا إلى مكان آخر كان يعجب توليـك. المكـان يبـدو مظلـماً إلى حـد مـا، لكنه كان يعمـل عـلى مـدار الـساعة. اسـتمروا هنـاك في الـشرب. لم يتـذكّر إيغور سيميونوفيتش بشكل واضح كيف وصل إلى الفندق ومتى .

لم يذهب إلى المسرح يوم الخميس.

عندما استيقظ في الصباح لم يكن في أفضل حالة، لكن كانت لديه حالات أسـوأ في الـسابق. المقـصود حالتـه الجـسدية. كـان مـن الـصعب عليه أن يحكم حول حقيقة ما كان يدور في ذهنه وفي قلبه. لم يحصل مثل هذا معه قط، لذلك لم يكن هناك أي إمكانية للمقارنة.

حتى الساعة الثالثة بعد الظهر كان يعِدُّ نفسه داخلياً للذهاب مساءً إلى المسرح. لكن بعد الثالثة أصبح واضحاً بالنسبة إليه أنه لن يذهب إلى هناك. ليس لأنه لا يعرف كيف يجب أن يتصرف في المـسرح، أو أي الزهـور التـي يجب شراؤها وكيف ينبغي أن تُهْدَى. كما أنه لم يكن خائفاً من أنها يمكن أن

تسأله، إذا اقترب منها بالطبع وعرفته، كيف ظهر في المسرح، وكان قد قرَّر الطيران إلى المنزل. لم يكن خائفاً من هذا كله. كان فقط يتذكر كل الوقت كيف سألته، عندما استَعَدَّ لمرافقتها... وقد أمالت رأسها قليلاً: «وما الداعي؟» طرح هذا السؤال. وكرّر طرحه على نفسه غير مرّة، لم يكن هناك جواب، ولم يذهب إلى المسرح.

وإلى جانب كل ذلك انهمر عليه سيل من المعلومات: عودة الاهتمام بالتلفاز إلى حياته، وتحوله إلى جهاز مغرٍ بشكل مخيف، وكائن مرعب لا يطاق، المجلات الملونة التي لم يسبق له أن اهتمَّ بها في حياته، ظهرت فجأة، وكانت كثيرةً جداً، واكتُشِفَتْ فيها مساحة مخفية، لأن صورتها كان يمكن أن توجد في أية واحدة من تلك المجلات. كما انبعثت إلى الحياة الملصقات المسرحية واللافتات، فقد كانت في كل مكان، وكان ذلك كثيراً جداً إلى حدّ لا يُطاق. وأيضاً هناك المسرح المجهول بالنسبة إليه! لم يستطع الذهاب إليه ولن يذهب.

باشر الشرب بعد الساعة الخامسة مساءً، وكان يجب على نيكولاي نيكولايفيتش أن يكون معه. وفي وقت متأخر من المساء جلسا في مكان فاخر، ومعهم فتيات. سكر إيغور سيميونوفيتش، وانبسط كما يُقال، وبدأ يصخب، انفكت أزرار قميصه الثلاثة إلى الأسفل، وراح يمزح بصوت عالٍ، وبدا أنه سعيد تماماً. في غمرة هذا المرح بدر من نيكولاي نيكولايفيتش تصرف طائش واحد... فقد همس في أذن إيغور بحميميّة بالغة:

- يـا عزيـزي! لا تـنسَ، هنـا لـيس بـيرم. نحـن في موسـكو، سيميونيتش! هل معك ما يكفي من المال لكل هذا ...

سـقطت غـشاوة إيغـور سـيميونوفيتش عـلى الفـور، فأمـسك بنيكولاي نيكولايفيتش من يده بقوة رهيبة. رنّت الأواني على الطاولة، وقعت إحدى الكؤوس الطويلة على الأرض وتحطمت بـصوت عـالٍ، وهذا ما أنقذ نيكولاي نيكولايفيتش من عواقب مجهولة، لكنه لم ينقـذه مـن أمـور أخـرى. بـدأ إيغـور بوضـع نيكـولاي في مكانـه مـن خـلال الكلمات. وَبَّخَهُ مطوَّلاً، وبـصوت عـالٍ وبشدة . قـال لـه أشـياء مهينـة ومؤذية ومزعجة جداً. وقد ذكَّرَه بكل شيء. أمسك بنيكولاي مـن يـده ونظر إليه في عينيه، ولم يكن خلال ذلك، يسمع أحداً أو شيئاً مما حولهما. وعَنَّفَه بقـسوة. كانـت الفتيـات قـد اختفـين في مكـان مـا. لم يـستطع أن يتـذكَّر كيـف انتهـى كـل هـذا. في وقـت متـأخر مـن الليـل شرب مـع نيكولاي نيكولايفيتش في بار الفندق، وراح إيغور يقول، وهـو بالكـاد يحرك لسانه: إن نيكولاي نيكولايفيتش هو الرجل الوحيد الوفي، وهـو لم يخذله قط. وإيغور سيميونوفيتش، بدوره لن يتخلّى عنه أبداً.

في يوم الجمعة، وبحلول وقت الغداء، شعر إيغور سيميونوفيتش بأنه لا يستطيع البقاء في موسكو. بدت العاصـمة بأكملهـا تـردّد صـدى صوتها. بحلول الغداء كـان قـد شرب بـما فيـه الكفايـة، أمـا عـلى الغـداء فإنـه لم يـستطع أن يأكـل أي شيء تقريبـاً، إلَّا أنـه تمكـن مـن التحـول من الفودكا إلى الويسكي. ذهب بعد ذلك مع نيكـولاي نيكـولايفيتش إلى المطـار. سـافرا بـسيارة أجـرة، واسـتغرق الطريـق فـترة طويلـة

بسبب الاختناقات المرورية الشديدة. غفا إيغور سيميونوفيتش حتى إنه نام في السيارة.

في المطار تجاوزا مرحلة تسجيل الرحلة، ومرّا عبر التفتيش، وجلسا في البوفيه يشربان. كان التدخين ممنوعاً، وإيغور سيميونوفيتش لم يكن يدخن، لأنه قد تركه منذ فترة طويلة. لكن خلف الطاولة المجاورة كان يجلس شاب في حالة سكر يتلفظ بصوت عالٍ بكلمات بذيئةً مختلفةً ويدخّن. وَجَّهَتْ امرأة ما له ملاحظة. لكن الشاب ردّ عليها بشكل غير لائق. عندها اقترب منه إيغور سيميونوفيتش، سحب سيجارته من فمه وأطفأها، ثم رماها في كوب فيه شراب، كان هذا الشاب يشرب منه، وبدأت المشكلة...

أما الرحلة فقد أخَّروها.

لكن في النهاية أصبح بالإمكان الطيران من موسكو.

خرج إيغور سيميونوفيتش من البوفيه وسمع ما كان يقوله له ذاك الشاب. رأى أن الشاب صغير جداً، وعلى ما يبدو أنه كان منزعجاً من الناس ومن مصيره. وشعر في أثناء ذلك بنوبة غثيان لا يطاق يقترب من حلقه، وأحسَّ أن الغشاوة على وشك أن تسقط. حتى إنه أحَسَّ بتلك الراحة التي تأتي بعد ذلك.

اقترب من نيكولاي نيكولايفيتش، الذي بادره القول وهو يعتمر قبعته:

- سيميونيتش، قلت لك لا تذهب. هل رأيت كيف أخذ يسب ويشتم؟ لكنه يخاف منك، لم يذهب وراءك. دعه يشتم، فعربدته سرعان ما ستوقعه في ورطة.

قال إيغور سيميونوفيتش:

- هيّا، كولا! لنصعد إلى الطائرة، وخذ هذا الشيء، من فضلك.

قال نيكولاي نيكولايفيتش:

- هذا الشيء يُدعى حقيبة، كم مرة ينبغي أن أقول لك هذا، سيميونيتش.

- طيب خذه، ليس من باب الأمر، بل من باب الرجاء. واستوْعِبْ؛... كولا، لا داعي لأن تذكِّرني ماذا يسمى هذا الشيء؟

قال نيكولاي نيكولايفيتش: حسن، هيّا.

حمل الحقيبة الكبيرة في يد، وحقيبته في الأخرى.

قال إيغور سيميونوفيتش: وخذ حقيبتي اليدوية أيضاً، من فضلك.

فَقَدَ الحدة في نظره، ولم يتمكن من استعادتها. بقايا الرِّقَة التي ظهرت عنده لأول مرة مَزَّقَتْ صدره. امتلأت عيناه بالدموع وأصبحتا نصف مغمضتين. أحسب أنه لو زادت الأمور أكثر من ذلك بقليل، فإنه لن يستطيع أن يتحمَّل. وأنَّ عليه الاستعجال. لم يكن يسمع من كل هذا الدوي الذي يملأ الفضاء المحيط به سوى ذاك الصوت المقزّز الذي يأتي من هناك... من ناحية البوفيه.

سأله نيكولاي نيكولايفيتش باستغراب:

- وأنت، سيميونيتش؟

فقـال إيغـور سـيميونوفيتش بـشكل بطـيء، وهـو يغـوص في الكلمات:

- أنا؟ ... أنت اذهب إلى الطائرة. أخِّر الإقلاع، أما أنا فسوف أذهب إلى دورة المياه وسأعود. المهم فقط ألَّا تطير من دوني.

قال هذا، واستدار، ومشى مسرعاً باتجاه الصوت.

المحتوى

الصفحة

صدر للمترجم

أولاً: الأعمال الأدبية.

١ -«عيون في الخريف» . قصص . اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٩٤ .

٢ -«حكايا طائر السمرمر» . قصص . اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٧ .

٣ -«سرير من الوهم». رواية . دمشق ٢٠٠٠ .

٤ -«صباح الياسمين.. صباح الغاردينيا». قصص. اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠١٤ .

٥ -«كتاب دمشق /حاء الحب .. راء الحرب». رواية. دار الفارابي، بيروت ٢٠١٥ .

٦ -«عصة بحر». قصص. اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠١٦ .

ثانياً: الدراسات.

١ -«نحو مجتمع معرفي» . دار الشرق، دمشق ٢٠١١ .

٢ -«الوطن في لحظة الحقيقة» . دار الشرق ، دمشق ٢٠١٢ .

٣ -«الإعلام /أدوار وإمبراطوريات /». وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠١٢ .

ثالثاً: الترجمة (أعمال للكاتبة الروسية غالينا شيرباكوفا)

١ -«اثنان وواحدة». قصص.

طبعة أولى (دمشق ٢٠٠١).

طبعة ثانية (وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣).

٢ -«حب ميتيا». رواية . وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠١٤ .

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م